



علماؤنا وتراث الأمم

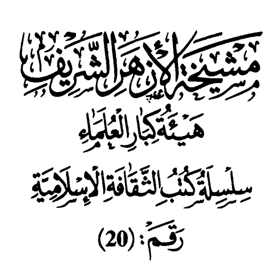


تأليف
محمد محمد أبو موسى
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف




علماؤنا وتراث الأمم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





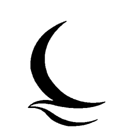


تأليف

محمد محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف





الإمارات العربية المتحدة
ص.ب 769564 أبوظبي
هاتف: 777 73 30 2 971+
فاكس: 054 12 44 2 971+
البريد الإلكتروني: info@muslim-elders.com
الموقع الإلكتروني: www@muslim-elders.com

فِهرست المكاتب العامة لدور الكُتُب والوثائق:
أبوموسى، محمد محمد
علماؤنا وتراث الأمم
ط -1 الحكماء للنشر،
1441هـ/ 2020م.
ص ؛ 15 × 22 سم.
عدد الصفحات: 80
1 - التراث الإسلامي
2 - اللغة والأدب
3 - الفكر الإسلامي
4 - العنوان

الطبعة الأولى

1441هـ/ 2020م.

صورة الغلاف الخارجي: منظرٌ للجامع الأزهر الشريف بريشة المستشرق الفرنسي بريس دافين Prisse d'Avennes, (1807 - 1879).

تصميم الغلاف: Media Pictures Adv.
وائل حسن - هاتف: 1113354001 20+
البريد الإلكتروني: wael.hasan86@gmail.com

الصَّفُّ الطِّباعِيُّ والتنسيق: ناصر محمد يحيى



(يُباعُ هذا الكِتابُ بسِعر التكلفة وعائدُه مُخَصَّصٌ لطباعةِ كُتُبِ التراث الإسلامي)

عُلماؤنا وتُراث الأُمم[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسوله الذي اصطفى، وبعدُ..

فإنَّ قضيَّةَ موقفنا من تراث الأُمَم وآثارِها، وجملةِ ما أبدَعَته، فيما اصْطُلِحَ على تسميته بـ «العلوم الإنسانيَّة» -قضيَّةٌ قديمةٌ، وقد طال الجدلُ حولها في أوائل القرن الماضي، وقد أُثيرَت منذ بداية الصِّدام الحضاري والفكري بين الأُمَّة الإسلاميَّة والأُمَم الأوربيَّة المسيحيَّة، وذلك بعدما مَرَّت عليها قرونٌ من الغفلة والتَّهاون، استيقَظَت فيها أممُ الغرب، وقطَعَت أشواطًا في مختلف المعارف الإنسانيَّة.

ولا أعرفُ أنَّ مثلَ هذه القضيَّة قد أُثيرَت في تاريخ الأمم، وتاريخ الصِّراعات الحضاريَّة والفكريَّة بهذا الحجم، وهذه الإطالة، وهذا الإلحاح، الذي شُغِلَت به مساحاتٌ زمنيَّةٌ وعقليَّةٌ في تاريخنا الحديث، وفي واقعنا المعاصر.

وكان ما كُتِبَ جديرًا بتركها لكثرته وشيوعه، ولكنَّه حدَثَ أن نَبَتَتْ فينا نابتةٌ هذه الأَيَّامَ، أعادَتها بعناد وإصرار واستِفْزاز، وألبَسَتها ثَوبًا من ثياب الزُّور، هو ثوبُ «التَّنوير».

وقد عَمِدَت هذه الطَّائفةُ إلى إخراج جانب من جوانب الحوار القديم يَخدُمُ أغراضَها، دونَ أن تكونَ أمينةً في عَرْضها؛ فزَوَّرَت تاريخَ علومنا، وقد وجَبَ علينا أن نُقدِّمَ موقفَ علمائنا من تراث الأمم، حتى يكونَ القارئُ على

---

(١) أصلُ هذا البحث محاضرةٌ أُلقِيَت في النَّادي الأدبي بالقصيم، ثم نُشرَ على نفقة مَن لا أعرفُ، ووُزِّعُ مجانًا على طلَّاب العلم بالمملكة العربيَّة السُّعودية، ثمَّ نشَرَته مجلَّةُ الوعي الإسلامي بالكويت.

بَيِّنة ويرى الرأيَ الآخَرَ، ويَكمُلَ لدَيه طرَفا الحوار.

ثمَّ إنَّ الجيلَ الذي تُنقلُ إليه الآن الأمانةُ ليست لدَيه خبرةٌ بما حدَثَ، ولم تَكتمِل عنده الأدواتُ التي تُعينُه على معرفة الزَّيف فيما فيه زَيفٌ، ولهذا رأيتُ أن أكتبَ في هذا الموضوع؛ حتى لا يظلَّ أبناؤنا يَسمَعون القضيَّةَ من جانب واحد، وأحرصُ أشدَّ الحرص على ألَّا ألقى اللهَ وأنا غاشٌّ لهذه الأُمَّة؛ لأنَّ السُّكوتَ عن الحقِّ في مثل هذا الموقف من غِشِّ هذه الأُمَّة.

وقد رأيتُ أن أعرضَ مواقفَنا المختلفةَ من علومنا وتراثنا ومن علوم الآخرين وتراثهم، وأن أُشيرَ إلى ما يتَّصِلُ بهذه المواقف، ثمَّ أجعلُ موقفَ علمائنا من تراث الأُمَم نورًا نهتدي به في يومنا وفي غَدِنا، وموقفُهُم جديرٌ بأن نَنظُرَ فيه وأن نهتديَ به؛ لأنَّ أجيالَ علمائنا هم الذين أقاموا حضارتَنا التي غلَبَت وسادَت أزمنةً متطاولةً، وأحرَزَت بهم الأُمَّةُ كثيرًا من الانتصارات، وكثيرًا من التَّقدُّم، ثمَّ إنَّ التَّلازُمَ بين الحياة الفكريَّة والحيوات الأخرى في الأُمَّة الواحدة حقيقةٌ ثابتةٌ لا ريبَ فيها، ففي الزَّمن الذي عاشَ فيه المتنبِّي، شاعرُ العربيَّة الأكبرُ، كان يعيشُ معه أبو الفتح بنُ جنِّي الإمامُ اللُّغويُّ، وكان العصرُ عامرًا بشيوخ الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين، والأفذاذ من قوَّاد الجيوش، وانتصارات سيف الدَّولة ووقائعه بالرُّوم، كلُّ ذلك مرتبطٌ بعضُه ببعض قوَّةً وضعفًا، وصحَّةً وزَيْفًا، فإذا رأيتَ اختلالًا في باب من أبواب الحياة، فاعلَم أنَّه قائمٌ في باب آخَرَ، وإن كانت عينُك لا تراه.

وكلُّ هذا يؤكِّدُ أنَّ موقفَ علمائنا من تراث الأُمَم في هذا الزَّمن الزَّاهر من تاريخنا كان موقفًا مدروسًا في حركة حياة لم يكُن فيها للعشوائيَّة مكانٌ.

والذي يجري في ساحتنا الآن حولَ مجموعة العلوم العربيَّة والإسلاميَّة، وهي التي أَعنِيها في بحثي هذا، يتلخَّصُ في مواقفَ ثلاثة:

الموقفُ الأوَّلُ: هو الموقفُ الذي يُلحُّ في دعوتنا إلى أن نَصْطنعَ علومَ الآخرين، وأن نتعلَّمَ ما يتعلَّمون، ونُفكِّرَ كما يفكِّرون، وأن نعيشَ كما يعيشون، وأن نتقلَّبَ في الحياة كما يتقلَّبون، ولا يجوزُ أن نُفرِّقَ بين علومهم وسلوكهم؛ لأنَّ العلومَ هي الأصلُ النَّظريُّ للسُّلوك، والسُّلوكَ هو الجانبُ التَّطبيقيُّ للعلوم، والعلومُ مجموعةُ قِيَم فكريَّة وأخلاقيَّة، ولهذا كان السُّلوكُ نابعًا منها، وهذا الجانبُ ألحَّ عليه رجالٌ لا تزالُ أسماؤهم تُذكَرُ، وهي موصوفةٌ بصفات عالية تُغري الآخرينَ بالأخذ عنهم، وقد تطرَّفَ بعضُهم وجاهَرَ بما يُضمِرُه غيرُه من نُظَرائه، فقال: يَجِبُ أن نتركَ الحديثَ عن خالد بن الوليد وعمر بن الخطَّاب والجاحظ والمتنبِّي، ويكفي ما قلناه فيهم وما ذكَرْناهم به، وما أَخَذُوه من وقتنا، ولننقُلِ الحديثَ إلى «كانط، وديكارت، وهيجل» ونظائرهم من أهل الفِكر الحي الذي صاغَ شعوبًا حيَّةً[١].

وقد انبثَقَ من هذا الاتِّجاه الهجومُ الشَّرسُ على علومنا وعلمائنا وفقهائنا وشُعرائنا؛ فالنَّحوُ علمٌ استُخرِجَ من لغات الصَّحراء والخرائب، ومن أفواه قَيْس وتميم، وتلك أُمَّةٌ قد خَلَت، ويَجِبُ أن تخلوَ لغتُها ونحوُها كما خَلَت، وأن نَستخرجَ نحوَنا من لغاتنا نحن، وأن نعودَ إلى ألسنتنا، كما تستخرجَ الأممُ الأخرى نحوَها من ألسنتها المتحرِّكة في أفواهها، وليس من ألسنة هُذيل وثقيف[٢].

---

(١) يُنظرُ في هذا: طه حسين وسلامة موسى.

(٢) يُنظرُ في هذا: دراسات الدُّكتور سعيد بدوي.

والبلاغةُ علمٌ بلَغَ حَدَّ اليأس، ويَجِبُ أن يُدفنَ في تربة طَيِّبة، وأن نَغرسَ في رُفاته غرسَ البنيويِّين والأسلوبيِّين، وأمَّا نقدُ الشِّعر وتذوُّقُه ومعرفةُ أسراره، فالذي عندنا منه كالذي عند حلَّاق القرية من علم الطِّب، والذين يأخُذون عن علمائنا علمَ صناعة الشِّعر ويَترُكون «مُنجزاتِ العصر» كالذين يَذهَبون إلى حلَّاق القرية ويَتركون الطَّبيبَ المتخصِّصَ[١].

أمَّا شعراؤنا فقد كانوا في الجاهليَّة يُمثِّلون موكبَ النِّفاق حولَ أرستقراطيَّة قريش «هكذا»، ثمَّ في الإسلام ما لَبِثوا بعد عصر النُّبوَّة أن تحوَّلَ رَكْبُهم وتحوَّلَت مزاميرُهم إلى أرستقراطيَّة بني أُميَّة ثمَّ بني العبَّاس، ومن طول ممارسة الشُّعراء للنِّفاق جَهِلَت ألسنُتهم مسالكَ الصِّدق، فلمَّا تكلَّموا في الطَّبيعة عجَزُوا عن وصفها؛ لأنَّهم اعتادُوا على النِّفاق لا غيرُ.

والفقهاءُ لم يَسلَموا من هذه الحملة الباغية، فقد كتَبُوا الفقهَ وهم مرعوبون من السَّيف، أو طامعون في المنائح، فانحرَفوا بالفقه لصالح مَن في يَده السَّيفُ والذَّهبُ[٢].

وأعتقدُ أنَّ تاريخَ الأُمَم كلِّها لا يَعرِفُ كُتَّابًا حمَلُوا أقلامَهم لهدم علومهم وحضارتهم ورجالهم وتاريخهم كما فعلَ هؤلاء.

وأصلُ هذا الاتِّجاه لا يُرَدُّ -كما يُقالُ- إلى التَّأثُّر بالفكر الغربي؛ لأنَّ التَّأثُّرَ بالفكر الغربي يُفْضِي إلى عكس هذا، والذي يكتبُه الأوربيُّون إلى شعوبهم مؤسَّسٌ على تأصيل ثقافتهم وعلومهم، وتحليل هذه العلوم وتَجليتها، ولا

---

(١) يُنظرُ في هذا: كتابات لطفي عبد البديع وصلاح فضل.

(٢) يُراجع في هذه المسألة عبدُ القادر القط في كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين.

يَزالون يَشرَحون «أفلاطون، وأرسطو، وهوميروس، وأريستوفان»، ويَضعونَهم في مكانة عالية للشُّعوب الأوربيَّة كلِّها، ومكانتُهم عند هذه الشُّعوب لا تَقِلُّ عن مكانتهم عند اليونان الأقدمين، ومهما كانت اتِّجاهاتُ الكاتب فإنَّ تأصيلَ المعرفة ممَّا لا يجوزُ الحيادُ عنه.

ولا تزالُ كتبُ النَّقد تَكتبُ فصولًا مطوَّلةً عن «أفلاطون، وأرسطو» وغيرهم، ولا تزالُ الأقلامُ تَنفَحُ تُراثَهم جِدَّةً وحفاوةً وتجليةً، وتُدَبِّجُ حولهم أكثرَ ممَّا تُدبِّجُ حولَ النُّقَّاد المعاصرين، ثمَّ ترى الكاتبَ يتَّجِهُ إلى تأكيد النَّواحي الإيجابيَّة في تراث رجال قومه، ويَبعَثُ هِمَّةَ القارئ ليُراجِعَ ويُعاوِدَ قراءةَ هؤلاء الشُّعراء والنُّقَّاد والمفكِّرين، فإن كان كاتبًا إنجليزيًّا رأيتَه شديدَ الحفاوة والاعتزاز بالشِّعر الإنجليزي ورجال أُمَّته، وإذا كان فرنسيًّا رأيتَه شديدَ الحفاوة بمجد بلاده وعزِّها القومي كما يقولون.

هكذا ترى الكاتبَ مُتَّجهًا إلى جمهور شعبه وجنسه وكأنَّهم بنو أبيه، يَبُثُّ فيهم حبَّ المعرفة، ويُغريهم بالإقبال على رجالهم، ومفكِّريهم، وشعرائهم، وأهل العلم في تاريخهم كلِّه، وهذه هي الرِّسالةُ الحقيقيَّةُ لحملة الأقلام: تثقيفُ الشُّعوب وصَقْلُها بثقافتها وعلومها، وشَحذُ روح الانتماء والوَلاء للأُمَّة وتاريخها ورجالها، وبَثُّ ذلك كلِّه حتى يَسطعَ في كلِّ كتاب يَتوارَثُه الأبناءُ عن الآباء، وبهذا تَنهضُ الشُّعوب وتَسيرُ قُدُمًا إلى الأمام.

ولا يُمكِنُ أن نعتقدَ أنَّ الذين يَهدِمون علومَنا بهذا الحقد الأسود، ويَشيعون في علمائنا وشعرائنا ورجالنا مقالةَ الزِّراية والقَدْح، لا يُمكِنُ أن نعتقدَ أنَّهم في

ذلك متأثِّرون بالكُتَّاب الغربيِّين، الذين يَسيرون في أُممهم سيرةَ الشُّيوخ في أُمَّتنا، ولو كانوا فينا لكانوا شيوخًا محافظين، لم تَعرِف هذه الأُمَمُ شاعرًا فذًّا، ولا مفكِّرًا مبدعًا، ولا نابهًا نبَغَ في شعر أو نقد إلَّا وهو عظيمٌ لارتباطه بثقافته وتاريخه ورجاله، وبمقدار تفوُّقه يكونُ تشبُّثُه بما نُسمِّيه الأصالةَ والتُّراثَ، وهذا ظاهرٌ ظهورًا لا يَلتبِسُ، ويَعرِفُه مَن قرأ مختصراتِ فِكر هذه الأمم.

قلتُ: إنَّ هذا الاتِّجاهَ الغريبَ الذي يَضرِبُ علومَنا وتاريخَنا ورجالَنا لا يُمكِنُ أن يكونَ ثمرةَ قراءةٍ لما تَكتُبُه الأقلامُ الحُرَّةُ في أيِّ أُمَّة من الأمم، وإنَّما نَجِدُ عَلاقةً واضحةً بينَه وبين كتابات أخرى ليست من باب العِلم في شيء، وإنَّما هي من باب السِّياسة، هذه الكتاباتُ هي ما كتبَه رجالٌ من الأوربيِّين غَمَسُوا أقلامَهم في تراثنا وعلومنا، وهم فرعُ المستشرقين الذين كانوا يَعمَلون في مؤسَّسات التَّبشير التَّابعة لوزارات الاستعمار، وكانوا مستشارين في شئون الشَّرق الأوسط.

وبَديهةُ العقل تقولُ: إنَّ نتائجَ دراسات وتوصيات هذا الفرع ليست لصالحنا، وإنَّما هي موظَّفةٌ لصالح أُمَّته وأهدافها في استعمار بلادنا والسَّيطرة عليها، وليس في هذا مجالٌ لما نُسمِّيه الحيادَ الفكريَّ، ولا المنهجَ العلميَّ، وكانت توصياتُ هؤلاء وتقاريرُهم تؤكِّدُ حقيقةً واحدةً يُجمِعُ عليها أوَّلُهم وآخرُهم، وهي ضرورةُ ضرب الحضارة الإسلاميَّة وتَفتيتِها والقضاءِ عليها؛ لأنَّها هي أساسُ الوحدة الجامعة لأمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأجناسهم وتباعُدِ ديارهم، وإنَّ تفريقَ المسلمين شعوبًا وأقطارًا بتجزئة بلادهم هذه التَّجزئةَ التي فرَضَها علينا المستعمرون بعد الحرب العالميَّة

الأولى -غيرُ كافٍ في فَصْم العُرْوة التي تَجمَعُ أبيضَهم وأسودَهم.

والحضارةُ الإسلاميَّةُ لها عُمُدٌ وأركانٌ قامَت عليها، وهي علومُ العربيَّة والإسلامِ، وعلومُ العربيَّة جزءٌ من العلوم الإسلاميَّة، والرَّابطةُ بين العلوم العربيَّة والإسلاميَّة رابطةٌ عضويَّةٌ كعَلاقة اليَد باليد، وبها صارَت هذه العلومُ وحدةً واحدةً، إذا أسقَطوا منها عِلمًا تَداعَت له سائرُ العلوم؛ لأنَّنا لا نتصوَّرُ دراسةَ فقه بعيدةً عن اللُّغة، كذلك لا يقومُ النَّظَرُ في التَّفسير ولا في الحديث إلَّا على اللُّغة، والضَّربُ في العلوم الإسلاميَّة يَستفِزُّ المسلمين ويُهيِّجُهم، ولكنَّ ضربَ علوم اللُّغة بما يُسمُّونَه «مُنجَزات العصر» الذي هو الفِكرُ الغربيُّ يَسعى نحوَ الهدف من غير ضَجيجٍ، وتحت أسماء مُغْرية مثل: التَّحديث، التَّطوير، الإحياء، التَّجديد.. إلى آخره.

وبهذا يُنقضُ الأساسُ الذي بُنِيَت عليه الحضارةُ الإسلاميَّةُ، وهذا شيءٌ ممَّا كانت تقومُ عليه توصياتُ وتقاريرُ المستشرقين الذين يَعمَلون في مؤسَّسات الاستعمار منذ بداية القرن التَّاسعَ عشرَ وربَّما قبلَه، ولا يزالُ هذا الأصلُ قائمًا في عَلاقات القوم بنا، وهو حاضرٌ في نفوسهم لا يَغيبُ عنها، وخاصَّةً عند مَن لهم صلةٌ بشئوننا من رجالهم، ثمَّ إنَّ انقطاعَ هذا الفرع من المستشرقين لدراسة علومنا ومجتمعاتنا أكَّدَ لهم أمرًا يَجِبُ أن يكونَ حاضرًا في نفوسنا، وهو أنَّ هذه العلومَ هي الجانبُ التَّحليليُّ والفقهيُّ لدين الله؛ لأنَّنا لا نستطيعُ أن نعبدَ اللهَ كما أمَرَنا أن نعبدَه إلَّا بالنَّظَر في كلامه سبحانه وكلام رسوله صلواتُ الله وسلامُه عليه، والنَّظَرُ في كلام الله وكلام رسوله صلواتُ الله وسلامُه عليه لا يقومُ إلَّا بمعرفة أصول هذه العلوم.

وبهذا يَؤولُ الأمرُ إلى أن يكونَ ضربُ علوم العربيَّة، الذي يُلِحُّ عليه الصِّغارُ منَّا والكبارُ، مُفْضيًا إلى العجز عن النَّظَر في كلام الله وكلام رسوله، صلواتُ الله وسلامُه عليه، وبهذا يَدخلُ الفسادُ في الدِّين، ويَسقطُ من أيدينا حبلُ الله المتينُ.

ولا تَعترِض عليَّ بأنَّ هناك أممًا إسلاميَّةً لا تَعرِفُ اللِّسانَ العربيَّ ولا علومَه؛ لأنِّي أرُدُّ اعتراضَك هذا بأنَّهم يأخُذون عنَّا نحن -أصحابَ اللِّسان- فَهمَ الدِّين، وقد أدرَكَ أعداؤنا أنَّ الحضارةَ الإسلاميَّةَ التي هي مجموعةُ علوم ومعارف وقِيَم، والتي طبَعَت سلوكَ المجتمعات الإسلاميَّة بطابَع خاصٍّ -هي التَّجسيدُ الفقهيُّ والثَّقافيُّ والحضاريُّ لدين الله، وأنَّ ضربَ هذا الدِّين من جهتها هو الغايةُ الحقيقيَّةُ، وكان هذا ظاهرًا أيضًا في تقارير هؤلاء المستشرقين وتوصياتهم للجهات التي تَستهدِفُ السَّيطرةَ علينا، وتَسلُكُ السُّبلَ إلى غاياتها بالدِّراسة والفَهم والعلم.

وبهذا يَظهرُ أنَّ الهجومَ على علوم العربيَّة والذي ذكَرنا إشاراتٍ موجَزةً دالَّةً عليه، وقلنا: إنَّه أمرٌ غريبٌ في تاريخ الأُمَم وتاريخ العلوم، أقولُ: هذا الهجومُ خارجٌ عن دائرة البحث العلمي، وداخلٌ في باب سياسة استعماريَّة قديمة، ولا تزالُ أصولُها قائمةً في صدور ورثة هذه السِّياسة في الأُمَم الأخرى.

ويَجِبُ بجانب هذا أن تتعرَّفَ على تاريخ الرِّجال الذين كانوا من أوائل مَن تكلَّموا في هذا الاتِّجاه منَّا، ويكفي أن أذكُرَ إشارةً موجَزةً هي أنَّ من أكابر رجال هذا الاتِّجاه مَن كانوا أعضاءً أوائلَ في الأحزاب الشُّيوعيَّة العربيَّة، ومنها الحزبُ الشُّيوعيُّ المصريُّ الذي أسَّسَه يهوديٌّ صهيونيٌّ، وقد خرَجَ هذا الحزبُ قبلَ سنة ١٩٤٨م في شوارع قاهرة المعزِّ يُطالبُ بإنشاء وطن قومي لليهود، فخرَجَ عليهم

العامَّةُ يُريدون الفَتْكَ بهم، وكان منهم سلامة موسى، وهو رجلٌ وثيقُ الصِّلة بكثير من الرُّوَّاد، وكلُّ رائد من الرُّوَّاد يَجتهِدُ أن يَصِلَ حبالَه به، وإلى الآن.

وهذه الصَّواعقُ المرسَلةُ الآن على علومنا، والتي يقومُ بها مَن يوصَفون بأنَّهم دعاةُ التَّنوير، هي في الحقيقة بأيدي بقايا من دراويش هؤلاء «الحرس الشُّيوعي القديم»، ولا أعرفُ واحدًا يدعو إلى ما يَدْعون إليه وفي صدره إيمانٌ بغيب يدلُّ عليه كلامٌ أو فعلٌ، ثمَّ إنَّهم في أوساطهم العلميَّة معروفون بالمجاهرة في مخالفات أصول الآداب الإسلاميَّة، وإنَّهم جميعًا يُجاهِرون بالفطر في رمضان، ويَجِبُ أن يُضافَ هذا كلُّه بعضُه إلى بعض لتَظهرَ صورةُ الحقائق الغائبة، وقد تَقِفُ معي حائرًا حين ترى وسائلَ التَّوجيه الثَّقافي والفكري في كثير من أقطارنا في أيديهم، وإنَّما ذكرتُ فِطْرَهم في رمضان لا لأن أرُدَّ آراءَهم بذلك، وإنَّما لأُعينَ على معرفة حقيقتهم.

ثمَّ إنِّي على يقين من أنَّ بعضَ الأغرار من الغِلمان الذين يَحطِبُون في هذا الوادي ليسوا مَنظومين في هذا السِّلك الخبيث، وإنَّما هم تلاميذُ عجَزوا عن فَهْم علومنا، وليس عندهم طاقةٌ ليَصبِروا عليها، فاختَصَروا الطَّريقَ بالهجوم عليها، ووضَعوا في أفواههم متونًا من معارفَ سَطحيَّة على غير بصيرة، وقد استهواهم أن يُقالَ عنهم: إنَّهم حَدَاثيُّون، وإنَّهم غيرُ جامدين، وإنَّهم أحرارٌ متنوِّرون، مثقَّفون.. إلى آخر هذا اللَّغو. ولو عَلِموا أنَّ الحَداثةَ فرعٌ من الماركسيَّة، التي تلتقي مع الصُّهيونيَّة في أرومة عدائيَّة واحدة -لهالَهُم ذلك، ولرَجَعوا عن هذا العبث، ولأَدرَكوا أنَّهم كالأطفال الذين تسلَّلُوا في غَفْلة أُمَّهاتهم إلى

أمكنة محظورة ليَعبثوا في أنابيب الغاز، أو في صيدليَّة الدَّواء، وهؤلاء الأغْرارُ المضلَّلون يَتكاثَرون في هذه الأيَّام لسبب واحد، هو سقوطُ وسائل التَّوجيه الثَّقافي والإعلامي في أيدي عِصابة أحفاد الحرس الشُّيوعي القديم.

ويُقابلُ هذا الموقفَ الرَّافضَ للتُّراث رفضًا كلِّيًّا موقفٌ آخَرُ انْكَفأَ على التُّراث انكفاءً كاملًا، وأغمضَ عينيه وسَدَّ أُذنيه عن كلِّ ما يدورُ حولَه لاعتقاده أنَّه فسادٌ، واكتفى عامَّةُ هذا الاتِّجاه باستيعاب العلوم وشرحها للأجيال، ورياضتهم على دروب فَهمها وتفهيمها، وهذا عملٌ جيِّدٌ جدًّا، ويعني استمرارَ وتواصلَ هذه المعارف حتى لا تنقطعَ سلسلةُ توارثها، أمَّا ما وراء ذلك من الاجتهاد في نَفْث الرُّوح في هذه العلوم، وإحيائها ونقلها من صيغ العصور القديمة إلى العصر الذي نعيشُه، على وجه مدروس، يَحفَظُ لها جوهرَها وصفاءَها، ويُجلي تجلِّياتِها ويُدنيها من فكر الجيل الحاضر كما كان يَفعلُ علماؤنا في الأطوار التَّاريخيَّة المختلفة، كلُّ ذلك قَصَّرَ فيه هذا الاتِّجاهُ، إلَّا بعضَ الأعمال المتناثرة التَّائهة في بحر الرُّكود الذي ترانا فيه غَرْقى.

وقد كان كلُّ جيل من أجيال علمائنا يَكتُبُ هذه العلومَ كتابةً جديدةً مجتهدةً، ويُقدِّمُها لجيله، يُفرِغُ فيها نَفسَه وعقلَه وعصرَه وروحَ زمانه الذي عاشَ فيه، ولم يَكتفِ جيلٌ بالذي كتبَه الجيلُ السَّابقُ، وإنَّما تابَعوا واستدرَكُوا وحَقَّقُوا واستخرَجُوا وهَذَّبُوا ورجَّحُوا وناقَشوا، وكلُّ جيل وضَعَ بَصْمَتَه على هذه العلوم.

ترى ابنَ هشام يَكتُبُ النَّحوَ الذي كتبَه سيبويه وكتبَته أجيالٌ بعد سيبويه، ومع هذه الكثرة وهذا التَّنوُّع تَجِدُ كتاباتِ ابن هشام متميِّزةً بروحه وروح

زمانه، تراه يُقدِّمُ المادَّةَ النَّحويَّةَ تقديمًا آخَرَ، لم يُطالب طلَّابَ العلم في زمانه أن يُحصِّلوا النَّحوَ من شروح كتاب سيبويه، وإنَّما كتَبَ كتاباتٍ فيها لُمَعٌ وإضاءاتٌ، وفيها نَبْضُ الزَّمان الذي يعيشُه، ثمَّ هذه الكتاباتُ تأخُذُ بيَد الطَّالب خطوةً على طريق المراجع الأُمِّ، ولا يزالُ الطَّالبُ يَنتقِلُ من زمنه إلى الزَّمن الذي سبقَه حتى يلتقيَ كتابَ سيبويه، وهو قادرٌ على فَهْمه.

وهكذا تَخرَّجَ العلماءُ، وهكذا فعَلَ غيرُ ابن هشام؛ ترى أجيالَ الفقهاء يَتبعُ بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جيل، وكلُّ جيل يأخُذُ معارفَ مَن سبقَوه ويُقدِّمُها لزمانه بلُغته هو وإضافتِه هو، ويُثيرُ غوامضَها، ويَبسُطُ مُجملَها، ويَشرحُ مُبهمَها، ونرى المادَّةَ العلميَّةَ التي كتبُوها، وإن كانت تلتقي في الأصول والثَّوابت مع مَن قبلهم، إلَّا أنَّهم وضَعوا عليها مِيسَمهم ومِيسَم زمانهم، وقرَّبُوها من جيلهم، ونفَثُوا فيها من أرواحهم وفُهُومهم.. إلى آخِر هذا الباب المتَّسِع الذي يُتِيحُ لك أن تتأمَّلَ كيف صاغَ الفارسيُّ علمَ سيبويه، وكيف انتقَلَ به من طَوْر إلى طَوْر، أو تتأمَّلَ ما صنعَه الخطيبُ القزوينيُّ في كتاب «المفتاح»، واحذَرْ أن تنظُرَ نظرًا سطحيًّا فتَستهينَ بما لا يُستهانُ به.

ثمَّ إنَّ هذا هو الطَّريقُ الذي سلكَه علماءُ الأُمَم كلِّها، وقد سبَقَ أن ذكرتُ أنَّ كُتَّابَ الأُمَم الأوربيَّة الذين تَرجِعُ أصولُ حضارتهم إلى الأصول اليونانيَّة، لا يَزالون يَتواتَرون على شرح «أفلاطون وأرسطو وسوفكليس وهوميروس وأريستوفان»، وغيرِهم ممَّن وضَعُوا علومَ اليونان.

ولم يَكتفِ جيلٌ بشرح الجيل الذي سبقَه، بل لم يَكتفِ كاتبٌ في زمن بشروح

الكُتَّاب الذين يعيشون معه، وإنَّما كلٌّ له مَلْحظٌ وله بصيرةٌ وله فهمُه ولُمعُه ونفحاتُه وتجلِّياتُه، وبهذا تتكاثرُ المعرفةُ وتَعظُمُ وتتنوَّعُ، وتعيشُ في قلب الزَّمن الحي، ولم تَعُدْ تراثًا تاريخيًّا، وإنَّما فِكرٌ حاضرٌ، يؤثِّرُ ويتأثَّرُ ويُحيي العقولَ الحيَّةَ وتُحييه العقولُ الحيَّةُ، يعيشُ في حوار مع العقل الحي جيلًا بعد جيل؛ يُغذِّيها وتُغذِّيه، ويَزدهرُ بها وتَزدهرُ به، ويُشرقُ فيها بعَبَقه القديم، وتُشرِقُ هي فيه بسَخائه الحاضر.

ولهذا وغيره قلتُ: إنَّ صياغةَ المعرفة بروح العصر ليست مهمَّةً سهلةً، وليس كما يتصوَّرُه الذين يعيشون مُستريحين بعيدًا عن مَعْمعان الصِّراع، حيث يَحسَبون أنَّ المسألةَ تنتهي بأن تضَعَ الكِتابَ القديمَ بين يدَيك، وأن تُتقِنَ أسلوبَه؛ يعني: تَفهمُه وتُلخِّصُه، أو تَكتبُ مادَّتَه كما هي بأسلوب سهل، لا ليس هذا ممَّا نحن فيه؛ لأنَّ نقلَ المعرفة من طَوْر إلى طَوْر لا يَتأتَّى إلَّا لأفراد الزَّمان، وهم الرِّجالُ المنقطِعون الصَّابرون المثابِرون، وقد أصبح هذا واجبًا علينا، وهو فرضٌ في أعناق القادرين عليه؛ لأنَّ الطَّفْرةَ الاجتماعيَّةَ التي نعيشُها باعَدَت كثيرًا بين جيلنا والصِّيغ القديمة، وكان جيلُ ابن هشام أقدرَ على قراءة مَن سبقَه من جيلنا هذا، الذي أصبحَ ترويضُه على معرفة علوم أُمَّته وأصول حضارته أمرًا محتاجًا إلى جهاد ومُكابدة، ولا يَنهضُ بذلك إلَّا أهلُ العلم، ولأجل ما فيه من مشقَّة ومُكابدة، وحاجته إلى صبر وانقطاع، فضَّلَ اللهُ الذين أوتوا العلم درجاتٍ، ولو كان الأمرُ سهلًا رَهْوًا كما نظُنُّه لما كان هناك وَجهٌ لهذا التَّفضيل.

قلتُ: إنَّ جيلَنا لم يَقُمْ بهذه الفريضة، واكتفى بالمحافظة على علومنا يَفْهَمُها ويُفَهِّمُها؛ لأنَّه رآها في قلب عاصفة من جهنَّم تَكتَسِحُها اكتساحًا

وتَجتَثُّها اجتثاثًا بوحشيَّة، وبروح بربريَّة لا تُقيمُ للعقل ولا للحقِّ ميزانًا.

وهناك اتِّجاهٌ ثالثٌ جاء وسطًا بين هذين الاتِّجاهين، وهو ما يُرادُ بالأصالة والمعاصرة، ويتمثَّلُ في إضافة مختارات من الفكر الغربي إلى مقالة علمائنا، وترى عبدَ القاهر و«كروتشة» وابنَ جنِّي و«تشومسكي» وسيبويه.. إلى آخر ما ترى.

ثمَّ إنَّك ترى كثيرًا من رجال هذا الباب يَضَعون المقتبَساتِ الغربيَّةَ موضعَ الشَّاهد والدَّليل، فإذا وافَقَتْ هذه المقتبساتُ كلامَ علمائنا صَحَّ بهذه الموافقة كلامُهم، وإذا خالَفَتْ سقَطَ بهذه المخالفة كلامُهم.

وهذا الاتِّجاهُ صار الآن غالبًا، ويَتَّبِعُه نفَرٌ كثيرٌ من الباحثين والأساتذة، ويَستروِحُ له جمهورٌ متَّسعٌ من طلَّاب العلم والنَّاشئين، وخصوصًا حين يُصادِفون نصوصًا غربيَّةً تُشابِهُ كلامَ علمائنا، ويَشعرُ القارئُ حينئذٍ بنَشْوة مُمتعة؛ لأنَّ شيوخَنا الأوائلَ كان عندَهم علمٌ «بالتَّناصِّ» مثلًا، ولغلبة هذا الأمر رأيتُ بعضَ الباحثين الفضلاء كتَبُوا كُتبًا ليس لهم فيها دراساتٌ، وإنَّما هي اختياراتٌ من نصوص علمائنا، وُضِعَتْ لها عناوين من قضايا الفكر الغربي، أو هي نصوصٌ شابَهَت كلامَ النُّقَّاد الأوربيِّين، أو تراءَت نارُها لمن يُطِلُّ عليها من القِباب الرُّوميَّة.

وليس من السَّهل أن تُهاجِمَ هذا الاتِّجاهَ إن كنتَ ترى فيه اختلالًا؛ لأنَّ أتباعَه ليسوا من الماركسيِّين ولا ضُلَّال نصارى العرب، ولا مُلحدين كأتباع التَّيَّار الأوَّل، وإنَّما هم مؤمنون بأهمِّيَّة التُّراث، ويرَونَ في هذه الخطَرات المتشابهة مع فكر الآخرين إشارةً إلى بقايا الحياة في بقايانا، وهذا طاردٌ لليأس وفقدان الثِّقة الذي طالما ألَحَّ على تثبيته الاتِّجاهُ الأوَّلُ، ثمَّ إنَّه يُمكِنُنا

إحياءُ علومنا بإضافة هذه المقتبَسات إلى ما عندنا، وهذه المقتبساتُ شاهدُ صدقٍ، ودليلٌ لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ على صحَّة ما قاله علماؤنا؛ لأنَّها من كلام الأُمَم المتقدِّمة، وهذا حسْبُها.

وهناك فكرةٌ تُذكرُ كشاهد لتثبيت هذا الاتِّجاه، وهي أنَّ علماءَنا في العصر العبَّاسي نقَلُوا علومَ اليونان وأفادوا منها في تصانيفهم؛ لأنَّها علَّمَتهم التَّبويبَ والتَّنظيمَ والمنهجَ، وكانت علومُهم كأنَّها أكوامٌ من المعرفة لا يُعرَفُ منها رأسٌ من قَدَم.

وهذه فكرةٌ غريبةٌ ومشبوهةٌ، وقد ملأَت الكتبَ، وألحَّتْ على عقول أبنائنا، وفي مراحل التَّعليم الأولى، حتى تَثبُتَ ولا يَسهُلَ زحزحَتُها أو التَّشكيكُ فيها، ولم أَعرِف أنَّ علماءنا أشاروا إليها، وهم الذين نقَلُوا العلومَ، وهم الذين أفادُوا، وهم الذين تعلَّمُوا التَّبويبَ والتَّصنيفَ، لم أَجِد كلمةً واحدةً، شاردةً ولا واردةً، لعالِم منهم لا في عصر التَّرجمة ولا في القرون التي بعده إلى زماننا هذا -تدُلُّ على أنَّ علماءَ المسلمين تعلَّموا التَّصنيفَ والتَّبويبَ والمنهجَ من ثقافة اليونان، ولا يَتصوَّرُ عاقلٌ أن تكونَ العقولُ التي أبدَعَت المعرفةَ وصنَّفَتها واستخرَجَتها عاجزةً عن تبويبها وتصنيفها.

أقولُ: هذه فكرةٌ غريبةٌ وشاذَّةٌ وغيرُ معقولة، وإنَّما أشاعَها في هذا العصر مَن أرادوا أن يُقنِعوا العقلَ الإسلاميَّ بالأخذ عن الآخرين، وباهتزاز الثِّقة في علمائه وحضارته، وأن يُوحوا إليه أنَّ آباءَه الأوَّلين لم يَستطيعوا أن يَسلُكوا دروبَ المعرفة إلَّا وهُم محمولون على عُكَّاز يوناني، وكذلك نحن -الأحفادَ-

علينا أن نهتديَ بعقول أحفاد مَن اهتَدَى آباؤنا بآبائهم.

أبـوكَ أبـو جهـلٍ وجَـدُّك مِثْلُـه ولسـتَ بخيـرٍ مـن أبيـك وجَـدِّك

وما دامَ الأمرُ كذلك فلا يكُن في صدرك حرَجٌ أن تُنيرَ عقلَك بنور هؤلاء الأحفاد، فقد نوَّرَ آباؤهم آباءَنا في سالف الدَّهر.

وإذا وضعتَ بإزاء هذا ما نقرؤُه من الإلحاح على أنَّ العقليَّةَ الإسلاميَّةَ غيرُ قادرة على أن تتخطَّى أسوارَ المجهول، وأنَّ قدراتِها لا تتجاوزُ الحركةَ في المعلوم، وهي عقليَّةٌ شارحةٌ ومُعلِّقةٌ وليست مُبدِعةً، ولا بُدَّ أن يكونَ بين يَدَيها من المعرفة مَتْنٌ من وضع غيرها لتعملَ فيه، وليس في إمكانها أن تصنعَ لها مَتْنًا، وأنَّ علومَها قامَت على شرح علوم اليونان، وأنَّ «أرسطو» لم يكُن مُعلِّمًا للعرب في الفلسفة والأخلاق فحسب، وإنَّما كان مُعلِّمَهم في البيان أيضًا.

ثمَّ إنَّ القولَ بأنَّ التُّراثَ الإسلاميَّ، مِن أَلِفِه إلى يائِه، غيرُ قادر على تكوين عقليَّة علميَّة، وغيرُ قادر على تكوين حِسٍّ أدبي، وأنَّ مَن يقرأُ الأدبَ العربيَّ وحدَه لا أدبَ له -أقولُ: إذا وضعت هذا بإزاء الكلمة الغريبة والشَّاذَّة عن التَّرجمة في العصر العبَّاسي وجدت الكلام بعضَه من بعضٍ، وكأنَّه خرَجَ كلُّه من مخرج واحد، وأنَّه كلَّه يُلقي ظِلالًا من فقدان الثِّقة في علومنا وعلمائنا، وإذا تذكَّرتَ مع هذا مقالةَ المستشرقين في ضرورة تدمير الحضارة الإسلاميَّة بزلزلة قواعدها التي هي علومُها -رأيتَ هذا امتدادًا لذاك، وتأكَّدَ أنَّ كثيرًا من الأفكار الدَّائرة في زماننا حول عقليَّتنا وعلومنا محتاجةٌ إلى فَحْصٍ، وأنَّ كثيرًا منها مُلوَّثٌ.

وإذا عرَفنا أنَّ هذا الكلامَ شاعَ في الكتب والمقالات والمحاضرات،

وطُرِحَ في كلِّ مَطرَح، وصار يُتلقَّى به أبناؤنا في مراحل التَّعليم المختلفة، إذا عرَفنا ذلك رأَينا أمورًا تَستوجِبُ الوقفةَ، ولا يجوزُ أن يمرَّ عليها العاقلُ مرورَ الكِرام؛ لأنَّ هذا الشَّأنَ ليس فيه مجالٌ لحسن الظَّنِّ.

وأخيرًا إذا وضعتَ مذهبَ الوسط هذا بجوار ذلك كلِّه وجدتَه متصالحًا مع كلِّ هذا ومُتوافِقًا معه.

وإذا كان الاتِّجاهُ الأوَّلُ اتِّجاهًا مدمِّرًا لحضارتنا، فهذا الاتِّجاهُ أشدُّ منه ضَراوةً؛ لأنَّه مُدمِّرٌ، ولكن بطريقة هادئة لا يَسمَعُ فيها النَّاسُ انقضاضَ حُصونهم فيَستيقظوا، ثمَّ هو يُدمِّرُ فكرةً فكرةً؛ لأنَّ الفكرَ الغربيَّ في داخل هذه المؤلَّفات لا يُسالمُ الفكرَ الإسلاميَّ؛ لأنَّه دخَلَ دخولَ المُستعلي الذي يَملكُ أن يَشهدَ للفكرة العربيَّة بالصَّلاحيَّة، فتبقَى الفكرةُ وهي مَدينةٌ لهذه الشَّهادة، أو يَشهَدَ عليها بالتَّخلُّف والفساد فيَخلَعَها من باب العلم، ويَرمي بها في أودية الجهالة والسَّذاجة والسَّطحيَّة.

ولهذا ترى هذه المؤلَّفاتِ وكأنَّها لم تُبْنَ على حوار الفكر، وإنَّما بُنِيَت على الصِّراع الذي ينتهي دائمًا لصالح الفِكر الآخَر، وراجِع قراءةَ هذه المؤلَّفات فقد تَجِدُ بعضَها بُنِيَ على ذكر صفحتين متقابلتين: صفحةٍ من الفكر الإسلامي وصفحةٍ من الفكر الغربي، مِثلَ كتاب «فن القول» لأمين الخولي، ويقولُ المؤلِّفُ في أسفل الصَّفحة المأخوذة من كلام علمائنا: انظُر لترى وجهًا شاحبًا معروقًا، وفي أسفل الصَّفحة المأخوذة من الآخر: انظُر لترى وجهًا حيًّا وحيويًّا، وكأنَّها إعلاناتُ دعايةٍ وليست كتبَ علم.

وهذا الاتِّجاهُ الذي كثُرَ تابِعُوه -كما قلتُ- ليس له نظيرٌ في علوم البشر، ومَن قرَأ أنَّ أُمَّةً أَحيَتْ علومَها بإدخال علوم الآخرين في شرايينها فليدُلَّنا على ذلك، ومَن رأى كتابًا في مشرق الأرض ومغربها قامَ على أمثال هذه التَّركيبة والتَّوليفة الشَّاذَّة، فليُخبِرْنا بذلك، ورحِمَ اللهُ الدَّمامينيَّ الذي قال حين احتَجَّ المخالفون على رأيٍ برأيٍ لسيبويه، قال: إنَّه لا يُحتجُّ برأيٍ على رأيٍ، وإنَّما يُحتجُّ بصريحِ العَقلِ وصريحِ النَّظَر، وقوَّة البرهان، وصواب الدَّليل، وهذا كلامٌ مستقيمٌ جدًّا، وقد أورَثَنا الكسلُ العقليُّ رذيلةً في تحصيل العلم، وهي متابعةُ ما عليه جمهورُ النَّاس من غير مراجعة، مع أنَّ العلمَ في جوهره مراجعةٌ وتدقيقٌ، وليس فيه شيءٌ يُحصِّلُه المرءُ وهو مُغمَضُ العينين، وقد انتهى بنا الكسلُ العقليُّ إلى أن صِرْنا كأسراب الطَّير يَتبَعُ بعضُنا بعضًا، وتَعجَبُ حين تَجِدُ أفكارًا كثيرةً فاسدةً وشائعةً عند جمهرة الكاتبين، حتى إنَّك لتردَّدُ وتتخوَّفُ من مُصادمتها، ولو كان فسادُها عندك بيِّنًا كفَلَق الصُّبح إلَّا أنَّ تقوى عزيمتك بما تَستيقنُه من حقٍّ وصدق، وما تَستشعرُه من أمانة العلم، فلا تَعْبَأُ بالوقوف في وجه التَّيَّار مهما كانت كثرتُه، ومهما كان سلطانُه وعُنْفُه، ومهما كانت «نجوميَّةُ» رجاله؛ لأنَّه في يقينك باطلٌ، والباطلُ زَهُوقٌ.

وأمرٌ آخَرُ مَكَّنَ لهذا الاتِّجاه، هو أنَّه في غيبة الوعي العلمي شَكَّلَ هذا الاتِّجاهُ الفاسدُ منهجًا قام عليه الدَّرسُ في كثير من معاهد العلم، وقام عليه إعدادُ أجيال بعد أجيال، وأصبح عند هذه الأجيال، التي رُبِّيَت عليه، أصلًا صحيحًا غيرَ قابل للمناقشة، ومَكَّنَ له الاتِّجاهُ الأوَّلُ البغيضُ، والذي تبنَّاه الماركسيُّون وضُلَّالُ النَّصارى العرب، كما مَكَّن له أيضًا ركودُ الاتِّجاه الثَّاني،

واكتفاؤه بالتَّحصيل والفَهم والتَّفهيم للمعرفة المكتوبة في المتون والشُّروح، والتي لم يُجاهِد علماءُ العصر في نَقْلها إلى الصُّور الذِّهنيَّة الملائمة لإيقاع الزَّمن، مع المحافظة الكاملة على جوهرها وعلى نقائها.

أقولُ: كلُّ هذا وغيرُه مَكَّنَ لهذا الاتِّجاه فاتَّسَعَ، ومضَت إليه الأجيالُ وهي معصوبةُ العينين، وهو خطرٌ كلُّه وفسادٌ كلُّه، وليس فيه شيءٌ من الصَّواب يَدعُو لمهادنته ومُساكنته، وهو خطرٌ على نفوس طلَّاب العلم الذين يَتلقَّونه بنفوس طَرِيَّة غَضَّة؛ لأنَّ الطَّالبَ يرى ماضيَه وتراثَه وتاريخَه من خلال هذا النَّص الشَّاحب المعروق على حَدِّ عبارة أمين الخولي، وهذا قتلٌ لهذه الذَّات وتدميرٌ نفسيٌّ لا يَرحَمُ، ومن الوجهة الأخرى يَخلقُ في أنقاض هذه النَّفس المحطَّمة شعورَ المهابة والتَّوقير للفكر الآخر.

ولا أَعرفُ علماءَ أُمَّة رَبَّوا أجيالَها على هذا الأصل الدَّنيء الظَّالم، ومن أخطر آثاره أنَّه يُورِثُنا الكسلَ العقليَّ، ويُنسينا الكدْحَ الحرَّ بالعقول الحرَّة؛ لأنَّك تستطيعُ أن تكونَ عَلَمًا من أعلامه، وأن تكونَ مجدِّدًا وصاحبَ نظريَّة بقراءة متن من متون علومنا، مثلَ أن تقرأَ في النَّحو «أوضح المسالك»، وأن تقرأَ في البلاغة «شرح المختصر»، ثمَّ تقرأَ متنًا من متون علم اللُّغة، أو علم الدَّلالة، أو النَّقد الأدبي في لغة أخرى، ثمَّ تؤلِّفَ من المتنين توليفةً، وأنت مُتمدِّدٌ على أَريكتك تَحْتسي قَدَحًا من الشَّاي؛ وبذلك تكونُ قد جدَّدتَ النَّحوَ أو البلاغةَ، وتكونُ صاحبَ نظريَّة، وما دام حولَك بعضُ تلاميذك المدرَّبين على صُنع الدَّعاية، فإنَّ هؤلاء سيتحدَّثون عن نظريَّتك في دروسهم، ويَكتُبونها في بحوثهم، ويُشيعونها

بين النَّاس، حتى تدخلَ ما دخَلَ عليه النَّهارُ.

وهؤلاء التَّلاميذُ يَعرِفون حقيقةَ هذا التَّجديد، وحقيقةَ هذه النَّظريَّات، إنَّ لم يكُن اليوم فغدًا، حين تتوافَرُ معارفُهم، وسيسلُكون الطَّريقَ نَفْسَه، ويَصنعون ممَّن حولَهم تلاميذَ لهم، ليقوموا بما قاموا به من قبلُ، ثمَّ يقرءون مَتنًا من هنا ومَتنين من هناك ويَصنعون نظريَّةً جديدةً، وهكذا يَتكاثرُ المجدِّدون وتتكاثرُ النَّظريَّاتُ، والعلومُ تتراجعُ بدلَ أن تتقدَّمَ، وتَخْبُو بدلَ أن تَسْطعَ.

وليس هذا من خُلُق العِلم وأهله في شيء، وللعلماء طريقٌ واحدٌ في كلِّ الأُمَم وفي كلِّ الأجيال، هو الكَدُّ والدَّأبُ والانقطاعُ والشُّغلُ الدَّائمُ الدَّائبُ لخواطر النَّفْس بما يُعالجون من مسائلَ، وتلاميذُهم من حولهم يَرَونهم وهم في مَعْمعان الجِدِّ والصِّدق يَحمِلون الأمانةَ حملَ الأوفياء البَرَرة، ويَطرُقون طُرقَ المعرفة بأنفَس ما يَملِكون من عُمر وعافية وكَدٍّ، ويَسلُكون في شِعابها وأدغالها، يَشُقُّون صعوباتٍ بعدَ صعوبات نحوَ غاياتٍ نبيلة، ومن ورائهم تلاميذُهم يَرَون ما يَرَون من جِدِّهم وصدقهم وجهدهم، فتَعظُمُ في نفوسهم أمانةُ العلم والصِّدق والحقِّ، يَمضُون على هَدي شيوخهم الذين هم كأنَّهم أوتادُ الأرض، وهم القومُ كلُّ القوم، وهم الهُداةُ وهم الحُدَاة، وأمثالُ هؤلاء جديرون أن يكونوا صالحين مُصلحين، وهم حملةُ التَّنوير الحقِّ، وهم الذين تَعْمرُ بهم البلادُ، ويَقتدي بهم العبادُ، وهم الذين أسَّسُوا العلومَ وأقاموا الحضاراتِ، وهكذا كان علماؤنا وكان علماءُ غيرنا ممَّن أفرَغوا في بلادهم نورًا، وأضاءت بهم الظُّلماتُ، ورفَعُوا للعلم المنارات، وهم المجدِّدون والرُّوَّادُ في عالَمنا المتخلِّف، وفي زماننا

الرَّديء، وقد كثُرَ المجدِّدون وكثُرَ الرُّوَّادُ، وكلُّ شيء على ما هو عليه لا تجديدَ ولا زِيادةَ، وإنَّما هو تكثُّرٌ ومُزايدةٌ في سوق «التَّهويش» القائم في بلادنا.

وأكثرُ هؤلاء يَذهبُ كلُّ شيء بذهابهم، ويَدخلُ معهم قبورَهم، ويُدفَنون مع كلِّ زَيْف عاشُوا له، إلَّا أن يَرَوا في بقائه حيًّا مصلحةً لمجدِّد حيٍّ، يَربطُ حِبالَه بمجدِّد ميْت.

وقد أطلتُ الكلامَ في هذا؛ لأنَّه كلَّه دائرٌ حولَ عَلاقتنا بتُراث الأمم، وقد جعلتُه مقدِّمةً لعَلاقات علمائنا القُدماء بتُراث الأمم، وأضعُ هذا بإزاء هذا لدَى الجيل الحاضر، وأضعُ ما عليه علماؤنا اليومَ في هذه القضيَّة المهمَّة، وما كان عليه علماؤنا بالأمس.

وأقولُ: إنَّ النَّظَرَ التَّفصيليَّ لمَوقف علمائنا من تُراث الأُمَم يحتاجُ إلى جهود ومراجعة في كلِّ باب من أبواب العلم، وفي كلِّ أصل من أصول المعرفة، وفي كلِّ فرع من فروعها، جهود تُبيِّنُ وتُفصِّلُ جَلِيَّة هذا الأمر الذي دخَلَه لَبْسٌ كثيرٌ، وإنَّما تكونُ هذه المراجعاتُ من المتخصِّصين في كلِّ هذه العلوم؛ لأنَّهم يَعرِفون نَشأةَ كلِّ مسألة، وقصَّةَ نموِّها وتكاثُرِها، وكأنَّها كانت تتحرَّكُ بين أيديهم طَوْرًا بعد طَوْر، يَعرِفون هذا بإحكام وبيان، ويَعرفون كيف كانت تأتيها مَوجاتٌ قويَّةٌ من التَّفكير والنَّظَر، في أطوار معيَّنة، فتنمُو وتزدهر، وكيف كانت تتقطَّع عنها هذه الدفعاتُ فتَقِف وتتجمَّد، ويَعرِفون مصادرَ هذا، وما إذا كان من داخلها أو من خارجها، وما إذا كان هذا الخارجُ من خارج هذا العلم ولكنَّه من عائلة العلوم العربيَّة الإسلاميَّة، كأخذ النَّحاة من الفقهاء، أم أنَّ هذا الخارجَ وافدٌ من علوم أمم

أخرى، على فَرْض أنَّ ذلك قد كان، لا يستطيعُ أن يقضِيَ قضاءً عادلًا في مسيرة كلِّ علم وكلِّ مسألة منه، إلَّا أفراد علمائه الذين عاشوا له وانقطَعُوا، وراجَعوا ورُجِعوا، وقَبِلوا ورفَضُوا، وأَخَذُوا وأُخِذَ عنهم، وهؤلاء قِلةٌ قليلةٌ في كلِّ عصر، وهم في كلِّ زمان يُشبِهون أنبياءَه؛ لأنَّهم الورثةُ الذين جاء فيهم الخبرُ الشَّريفُ.

من غير أن أدخلَ في قصَّة العلوم عِلمًا عِلمًا، وربَّما أشرتُ إلى خصوصيَّات ظاهرة في طبيعة بعض العلوم تجعلُ القولَ بالاستمداد من خارج اللِّسان في تأصيل معارفها قولًا باطلًا، وإن كان قد شاعَ، كالقول بأنَّ البلاغةَ ذاتُ أصول يونانيَّة، وأنَّ «أرسطو» كان معلِّمَ العرب فيها، ومثلُ هذا وإن كان لا خلافَ عند أهل التَّدقيق في فساده، لا يزالُ يُكرِّرُه علماءُ ويُعلِّمونه تلاميذَهم؛ لأنَّهم أخَذُوه عن غير أهل التَّحقيق، وهم في سنوات الطَّلب، ولم تتوافَر لدَيهم الوسائلُ العلميَّةُ التي تُعينُهم على بيان جَلِيَّة الأمر فيه.

ثمَّ إنَّه لا كلامَ لنا في عِلْمَي الفلسفة والمنطق؛ لأنَّهما ليسا من عائلة العلوم العربيَّة والإسلاميَّة، التي يَعرفُ العلماءُ أنَّها أصولُ الحضارة الإسلاميَّة، ولأنَّها شرحٌ وتحليلٌ لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وبيان الحلال والحرام، وأُكرِّرُ أنَّها السَّبيلُ الذي لا نَعرِفُ سبيلًا سواه لفَهم دين الله، وأنَّ الضَّربَ فيها يعني قطعَ الطَّريق الواصل إلى فَهم حقيقة دين الله، والنَّحوُ في ذلك كالفِقه، الذي هو علمُ الحلال والحرام، والبلاغةُ والتَّفسيرُ والعقائدُ كلُّ ذلك سواءٌ، بخلاف الفلسفة وعلم المنطق، فإنَّهما لا شأنَ لهما في هذا الباب.

وقد شغَلَت الفلسفةُ حيِّزًا محدودًا في تراث المسلمين، وظلَّت محصورةً

في دائرة محدودة، وقد هاجَمَها كثيرٌ من علمائنا ورفَضُوها وجرَّحوا عقائدَ مَن طالَت ممارستُهم لها.

ومن الحقائق الظَّاهرة التي يَجِبُ أن نستصحبَها ونحن نتكلَّمُ عن علاقة علمائنا بتراث الأُمَم - شيوعُ روح الحَذَر والاحتياط والبُعد عن التَّزيُّد في استنباط أصول المعرفة عند علمائنا، فقد كانوا يتوقَّفون ويُراجِعون، حتى تتوافَرَ لدَيهم الشَّواهدُ والبراهينُ التي تؤكِّدُ لهم الحقائقَ التي يؤصِّلونها؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّ خلافَ هذا التَّأكيد والتَّوثيق، وإقامة الحُجَّة بعد الحُجَّة، يُفضي إلى الاختلال في فَهم كلام الله؛ لأنَّها ليست أصولًا لغويَّةً يكونُ الخطأُ والصَّوابُ فيها في دائرة اللُّغة فحسب، وإنَّما هي وسيلةٌ لفهم كلام الله، والخطأُ فيها ينتقِلُ إلى الخطأ في كلام الله، فإذا قلنا: إنَّ «إنَّ» تُفيدُ التَّوكيدَ، فإنَّ هذا يعني أنَّنا نقولُ: إنَّها في هذه الجملة القرآنيَّة تفيدُ التَّوكيدَ، يعني أنَّ التَّوكيدَ هنا مرادٌ من مُراداتِ الحقِّ ﷻ، وهذا كلامٌ لا يجترئُ عليه إلَّا مَن تَثبَّتَ واستيقَنَ، وهذا الأمرُ وحدَه يكفي في صرف علمائنا عن إدخال أيِّ فكر من علوم الأُمَم الأخرى في هذا الباب.

وقد أفادوا من الفقهاء ومنهجهم، وكان ابنُ جنِّي يقولُ: إنَّه بنَى كلامَه في أصول اللُّغة على كلام الفقهاء في أصول الفقه. وعلمُ الفقه في تراثنا هو العلمُ الأعلى، وليس عند الأُمَم الأخرى مِثلُه، وقد قام النَّظَرُ فيه على أصل من الاحتياط والضَّبط في الاستنباط والقياس، وقد تميَّزَ بهذا وصار علمًا له منهجٌ رفيعٌ ومُتقنٌ، حتى إنَّك ترى هذا العِلمَ وحدَه قادرًا على تكوين عقل حيٍّ، يتحلَّى بأدقِّ أصول المنهج ضبطًا ولمحًا ونفاذًا.

وأصلُ هذا كلِّه مُستمَدٌّ من رسول الله ﷺ، وطريقة بيانه للقرآن، ومن علماء الصَّحابة رضوانُ الله عليهم الذين أخَذُوا عن رسول الله صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقد أفادَت العلومُ العربيَّةُ من هذا المنهج، وأمَدَّها بكثير من مزاياه، فقام منهجُه على التَّقصِّي، ودقَّة النَّظَر، وذكاء الملاحظة، وسلامة القياس وتوفُّر المراجعة والاستدلال، وغيرِ ذلك ممَّا يَقتضيه الضَّبطُ والسَّدادُ، ومَن أرادَ أن يتعلَّمَ المنهجَ فليَنظُرْ إلى كلام الفقهاء، لا ليُحصِّلَ المسائلَ التي يَذكُرونها فحسب، ولكن ليرى حركةَ عقولهم وهي تُحاورُ النُّصوصَ، وتَستنبِطُ وتستخرجُ، وتأخذُ وتَدَعُ وتُرجِّحُ.. إلى آخر ما في هذا من حيويَّة عقليَّة بالغة الدِّقَّة والملاحظة، ومَن لم يقرَأ كُتبَ الفقه ببصيرة فلا يجوزُ له أن يتكلَّمَ في تراث المسلمين.

ولهذا قلتُ: إنَّ القولَ: «بأنَّ التَّرجمةَ في العصر العبَّاسي أفادَت المسلمين المنهجَ، وعلَّمَتهم التَّبويبَ والتَّصنيفَ» من الكلام الذي لا يروجُ عند مَن عرَفَ دقَّةَ النَّظَر عند الفقهاء الذين كانوا هم المعلِّمين الحقيقيِّين لعلماء الأُمَّة.

ولا أشكُّ في أنَّ علماءنا كانوا يقرءون من تراث الأُمَم كلَّ ما يُتاحُ لهم أن يقرءوه؛ لأنَّ طبيعةَ العقل المشغول بالمعرفة تَدعُوه إلى أن يَنظُرَ في ثمار العقول، وأن يَتعرَّفَ على تجارب العلماء والأمم، وأن يَنظُرَ في كلِّ ما يُتاحُ له النَّظَرُ فيه ليعرفَ كيف يُفكِّرُ الآخرون، وماذا يقولونُ، وهذا أمرٌ في طبع النَّفس وفي طبع العقل.

لا أستطيعُ أن أتصوَّرَ أن يكونَ التُّراثُ اليونانيُّ أو غيرُه منقولًا إلى لغتنا وفي مكتباتنا، وعلماؤنا المنقطِعون للبحث والدَّرس عازِفون عن النَّظَر فيه!! لأنَّ هذا يُخالفُ الطَّبائعَ التي تَغلِبُ على أهل العلم؛ لأنَّهم أهلُ التَّوق الدَّائم

إلى المعرفة، وقد علَّمَهم الرَّسولُ صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّ المعرفةَ لا وطنَ لها، وأنَّ الكلمةَ الحِكمةَ ضالَّةُ المؤمن؛ يعني: هي كضالَّته التي يَنشُدُها في كلِّ مكان يظُنُّ أن تكونَ قد ذهَبَت إليه، والضَّالَّةُ لا تُفرِّقُ بين أرض الكفر وأرض الإسلام، وهكذا الكلمةُ الحكمةُ لا وطنَ لها، ثمَّ إنَّ الباحثَ عن ضالَّته التي فيها متاعُه وطعامُه وشرابُه يَبحثُ عنها بعناية شديدة، ويَصرِفُ إليها كلَّ هَمِّه، وكذلك القلبُ الحيُّ في بحثه عن الكلمة الحِكمة المتضمِّنة هَدْيًا ورشادًا، يَبحثُ عنها بوَلَع وحبٍّ وتَوْق وصبر وترقُّب وانقطاع، وهذا وصفٌ رفيعٌ للمؤمن.

ولو أنَّ الأُمَمَ الإسلاميَّةَ أشاعَت بينها هذا المعنى النَّبيلَ المتضمَّنَ في تلك الكلمة الجامعة من كلامه صلواتُ الله وسلامُه عليه لكانت مجتمعاتُنا على حال غير الحال التي نحن عليها؛ لأنَّ التَّخلُّفَ ليس له دواءٌ إلَّا دواءً واحدًا يطب له، وهو القراءةُ والبحثُ الصَّادقُ عن الكلمة الصَّادقة، ووصفُ الكلمة في الأَثَر الشَّريف بالحكمة يَبتعِدُ بالعقليَّة الإسلاميَّة عن الخَوض في الزَّيْف والأباطيل، والمعرفة المدسوسة، والقائمة على التَّلبيس والتَّهويش.. إلى آخر ما يُمكِنُ أن يكونَ في عالم الكلمة، إذا زاغَت وانحرَفَت، وضلَّت وترَكَت سبيلَ الحكمة.

إنَّ علماءنا الذين انقطَعوا لطلب العلم، وذاقُوا حلاوتَه ولزِمُوا أبوابَه، فتَحُوا كلَّ آفاقهم لكلِّ علم نافع، وكلِّ فَهم صحيح، وكلِّ فكر عالَجَه أصحابُه بصدق وجِدٍّ وأمانة، ولكنَّهم مع هذا كلِّه لم يَذكُروا شيئًا من هذا الفكر الآخر في معالجتهم لعلوم العربيَّة، وإنَّما اقتبَسُوا علمَها بالمنهج الذي وصفناه من دلالات اللِّسان العربي نَفْسه، وما نطَقَ به أصحابُ اللُّغة، فإذا قالوا بوجوب

تقديم الاستفهام فلأنَّ أصحابَ اللِّسان أوجَبوا تقديمَه، وإذا قالوا بوجوب حذف الخبر في موطن كذا فلأنَّ أصحابَ اللِّسان فعَلُوا ذلك، وتأمَّلْ أصولَهم تَجِدْها قد تأسَّست على طرائق العرب في بناء كلامهم على وَفْق مقاصدهم؛ تأمَّلْ قولَ سيبويه: «كأنَّهم يُقدِّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعْنَى» تَجِدْه مُقتبَسًا من طرائق القوم ومذاهبهم، وما أسَّسُوا عليه كلامَهم، وهذا يعني: أنَّ علماءنا، وهم يَستخرِجون علومَنا، لم يكُن أمامَهم في هذا الشَّأن لا تراثُ اليونان الذي قالوا: إنَّ البلاغةَ اقتُبِسَت منه، ولا تراثُ الهنود الذي قالوا: إنَّ النَّحوَ اقتُبِسَ منه، وإنَّما بين أيديهم بيانُ العرب عن معانيهم وطرائقهم في التَّلطُّف إلى هذه المعاني، وهذا أمرٌ ظاهرٌ لكلِّ صاحب نَظَر علميٍّ جادٍّ، وليس من مقاصده اتِّهامُ العقليَّة الإسلاميَّة ولا الدِّفاعُ عنها، وهذا الذي جعَلَ عِلمَهم صالحًا ورشيدًا، وهاديًا إلى معرفة أسرار هذا اللِّسان إلى يوم النَّاس هذا، وإلى ما بعدَ هذا اليوم، ما دامَت الألسنةُ جاريةً بهذه اللُّغة الشَّريفة؛ لأنَّ العلمَ ما دامَ قد اقتُبِسَ منها، واستُنبِطَ من أحوالها، فلن يتغيَّرَ ولن يُحوَّلَ.

وكان من ثمرة هذا التَّوفيق في استمداد أصول اللِّسان أن تحقَّقَ لعلمائنا ما أرادوه ممَّا هو نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لهذا المنهج، وهو تثبيتُ أحوال اللِّسان عند هذا المستوى الذي وصَلَت إليه العربيَّةُ في زمان نزول الوحي، حتى يظلَّ كلامُ الله مفهومًا، وكلامُ رسوله ﷺ مفهومًا.

وقد كان ذلك، ولا يزالُ عامَّةُ المسلمين في مجتمعاتنا المختلفة يَسمَعون كلامَ الله سبحانه، فتخشعُ له قلوبُهم، ويَسمَعون كلامَ رسوله صلواتُ الله

وسلامُه عليه فتنفعلُ به نفوسُهم، ولو اهتزَّت هذه الضَّوابطُ، وتغيَّرت بتغيُّر الأزمنة والأحوال، وانتقَلَ استمدادُ شواهدها وأصولها من اللِّسان الذي نزَلَ به القرآنُ وتكلَّمَ به النَّبيُّ ﷺ -لانتهى الأمرُ مع تغيُّر الأزمنة والأحوال إلى ضعف الصِّلة بيننا وبين كلام الله سبحانه، وهذا لن يكونَ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه تعهَّدَ بحفظ القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وهذا الوَعدُ مُتضمِّنٌ حفظَ اللِّسان؛ لأنَّه يستحيلُ أن يحفظَ القرآنَ وتضيعَ لغتُه؛ لأنَّ معنى الحفظ أن يظلَّ مقروءًا مفهومًا في الأُمَّة، ولن يكونَ كذلك إلَّا ببقاء لغته تدورُ بها ألسنتُنا وتَسمعُها آذانُنا.

ولنَنظُرْ في تراث محمود بن عمر الزَّمخشري لنرى إمامًا في البلاغة والنَّحو واللُّغة والغريب والتَّفسير والحديث والفقه.. وغيرِ ذلك ممَّا أَلَّفَ فيه، ولنَدَعْ كلامَه في العقائد؛ لأنَّ علماءنا قامُوا بواجب مناقشته وردِّه، وإنَّما ننظُرُ إلى تراثه من هذه الجهة التي نحن فيها، وأنت واجدٌ تراثًا لغويًّا حافلًا، يَخلو خلوًّا كاملًا من أيِّ إشارة إلى أيِّ فكر أعجمي، وإنَّما اللُّغةُ مُستقاةٌ من أفواه أصحابها، وما تكلَّموا به في بَواديهم، وما خَطَبُوا به في نواديهم، وما تَراجَزَ به الأعرابُ وهم يَمْتحون[1] الماءَ من آبارهم، والنَّحوُ مُقتبَسٌ من صُلب اللِّسان، والبلاغةُ مقتبسةٌ من مذاهب القوم، وما أَودَعوه في لغتهم من رقائق المباني التي أودَعوا فيها دقائقَ المعاني.

لا تستطيعُ أن ترى شيئًا في كلام الرَّجل من هذه العلوم يدُلُّك دلالةً ما على

(١) [أي: يَستخرِجون].

أنَّ الرَّجلَ له عِلمٌ بعلوم الآخرين، ثمَّ إنَّه كتَبَ كتابًا ضخمًا سمَّاه «ربيع الأبرار»، جمَعَ في هذا الكِتاب شيئًا كثيرًا من حِكَم الفرس، واليونان، والهنود.. وغيرهم من الأمم، وهو مشحونٌ بأسماء الأعلام البارزين في تاريخ كلِّ أُمَّة من هذه الأمم، فيه شعراء وحكماء ومؤرِّخون، ومفكِّرون وفلاسفةٌ، وقوَّادُ جيوش وملوك، وهذا الكِتابُ كأنَّه خلاصةُ تجربة الإنسانيَّة وحِكمتها، وقد بُنِي على كلام الأعاجم، وهو دالٌّ دلالةً قاطعةً على أنَّ الزَّمخشريَّ لم يَطَّلِع على تراث الأُمَم فحسب، وإنَّما تدبَّره ووعاه، وتمثَّله وقيَّدَه في دفاتره، واختارَ منه هذا السِّفرَ الضَّخمَ.

ومن المؤكَّد أنَّ الزَّمخشريَّ لم يَستخرِج هذه الآدابَ وهذه الحِكَمَ من تراث الإنسانيَّة إلَّا بعد أن قرأَ تراثَهم في اللُّغة والشِّعر، والتَّاريخ والوقائع، وقد ذكَرَ من كلام «سقراط وأفلاطون وأرسطو» حِكَمًا وآدابًا، وهذا قاطعٌ في أنَّه قرأَ تراثَ هؤلاء الثَّلاثة، وهم أعيانُ العلم وأعلامُه في أُمَّتهم، ومع هذا يَخلو تراثُه العلميُّ في اللُّغة والنَّحو من أيِّ إشارة إلى أيِّ معلومة أعجميَّة تكونُ قد سقَطَت في لسانه، وهو في مَعمعة البحث والتَّنقيب، وقد كتَبَ هذا الكِتابَ ليَستروِحَ به الذين يقرءون «الكشَّاف» من عَنَاء النَّظَر ومشقَّة المتابعة، وقد كتَبَ «الكشَّاف» في آخر حياته رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتابُ «ربيع الأبرار» كُتِبَ بعدَه، وهو كما قلتُ: سَيلٌ يَهْمِي من الحِكَم والآداب والتَّجارب، لا تتوافَرُ مادَّتُه الغزيرةُ إلَّا لمن عاشَ زمانًا بعدَ زمان يُراجِعُ، وكأنَّه نُفِضَ له تراثُ الأُمَم.

وتسميةُ الكِتاب لها دلالةٌ؛ لأنَّه نظَرَ إلى ما فيه جانبُ السُّهولة والعذوبة والغزارة، فسمَّاه «ربيعًا» لنَضارته وغَضَارته، ثمَّ ذكَرَ «الأبرار» للإشارة إلى

طُلَّاب العلم المبتدئين في قراءة «الكشَّاف»، وكان الكِتابُ الذي هو «الكشاف»، مع امتلائه وتنوُّعه ومشقَّة تحصيله، لا يزالُ في متناوَل المبتدئين.

وبالمناسبة أذكُرُ شيئًا في هذا يُذكِّرُنا بما قلتُه من أنَّ علماءنا كانوا يَنظُرون إلى الأجيال ويَجتهِدون في تقريب المعرفة العربيَّة والإسلاميَّة إليهم، وكانت مسألةُ انتقال العلم إلى الجيل الثَّاني الممثَّل في التَّلاميذ مسألةً أساسيَّةً لم يَغفُلوا عنها أبدًا.

أقولُ بهذه المناسبة: إنَّ حمزةَ بنَ يحيى العلوي لمَّا بدأَ يقرأُ لطلَّابه كتابَ «الكشاف» وجَدَهم قد ضَعُفوا عن حمله، وكان قد مضى على زمن الزَّمخشري ما يُقارِبُ قرنين، فكتَبَ لتلاميذه -الذين يُدرِّسُ لهم كتابَ «الكشاف» - كتابَه «الطِّراز المتضمِّن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز»، ليُحصِّلوه أوَّلًا، ثمَّ ينتَقِلوا إلى كتاب «الكشاف».

وقد جعلتُ هذا مُعترَضًا، لأُشيرَ إلى هموم أهل العلم بالأجيال اللَّاحقة، وبمسألة توريث العلم لهم وإعدادهم؛ لتنتقلَ إليهم المعارفُ والعلمُ الشَّريفُ، وعلمُ ما يَلزَمُ لهذا، وملاحظةُ التَّطوُّر الزَّمني والتَّغيُّر الثَّقافي يَفعَلُ فعلَه في الأجيال.

وأعودُ إلى المسألة وأقولُ: إنَّ الزَّمخشريَّ كان عالمًا بالفارسيَّة؛ لأنَّها لغتُه ولغةُ مَن حوله، ولم يكُن الزَّمخشريُّ من سُلالة عربيَّة وإن كان عربيَّ القلب واللِّسان، وإنَّما المرءُ بأَصْغَرَيهِ: قلبِه ولسانِه، وبعدما نزَلَت كلمةُ الله في العرب لم تبقَ العروبةُ جنسًا، وإنَّما صارَت دينًا ولغةً، وثقافةً وأدبًا وحضارةً، ومَن دخَلَ في دينِ الله وجَرَى لسانُه بهذه العربيَّة الشَّريفة، وثَقِفَ شعرَها وأدبَها وعلومَها، وجرَت خواطرُه على مذاهبها -فهو

عربيٌّ، وفي الأثر: «مَن تكلَّم بلسان العربيَّة فهو عربيٌّ»(١)، وإنَّما قال: «بلسان العربيَّة»، ولم يقُل: بلسان العرب؛ لأنَّ العربَ قد يَختلُّ لسانُهم عن عربيَّتهم الشَّريفة العالية، فجعل العربيَّةَ الشَّريفةَ التي نزَلَ بها القرآنُ وتكلَّمَ بها النَّبيُّ ﷺ هي الجنسَ، ثمَّ إنَّ آيةَ الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] نسَبَتْ المؤمنين إلى بيت النُّبوَّة؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ أَوْلى بهم، وهو أبٌ لهم كما في بعض القراءات، وهم أبناءُ أُمَّهات المؤمنين، وهذا يلتقي مع ما في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا كلُّه يجعلُ هذا الدِّينَ هو الأمَّ والأبَ، وهو الجنسُ.

ولهذا لا يُستساغُ أن نقولَ: إنَّ عبدَ القاهر الذي علَّمَنا كيف نذوقُ العربيَّةَ أعجميٌّ، وكذلك أبو علي الفارسيُّ، وأبو الفتح الرُّومي، ومحمود بن عمر الخوارزمي، نعَم هو فارسيٌّ ولكنَّه عربيٌّ، وهذا روميٌّ ولكنَّه عربيٌّ، وهذه مسألةٌ أشرتُ إليها؛ لأنَّ كثيرًا من الكتب تحبُّ أن تَذكُرَ طبقاتٍ من علمائنا وتُسَمِّيهم الأعاجمَ، وأنَّهم أفسَدوا العربيَّةَ لفقدانهم ذَوْقَها، وهو كلامٌ محتاجٌ إلى أن يُدقَّقَ لأنَّ العُجْمةَ معناها عدَمُ الإبانة، وليس المرادُ بها الجنسَ المغايرَ للعرب، وقد ذكَرَ المصطفى صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّ سلمانَ الفارسيَّ من أهل البيت.

وكان الزَّمخشريُّ بحكم الفارسيَّة يَعرِفُ علومَها، وطرائقَ اشتقاقها، وأصولَ نحوها وبلاغتها، وقد قرأتُ كتابَه «ديوان الأدب»، وهو مخطوطٌ، ورأيتُه مكتوبًا باللُّغتين العربيَّة والفارسية؛ سطرٌ مكتوبٌ بالعربيَّة وترجمتُه في السَّطر الذي يَليهِ بالفارسيَّة، وهكذا.

---

(١) [أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ٢١/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٤٠٧، وإن كان في سنده ضعف إلا أن معناه صحيح مقبول].

وكان كلُّ هذا جديرًا بأن يُغرِيَ الرَّجلَ بأن يَذكُرَ، ولو من باب الموازنة، قاعدةً فارسيَّةً في النَّحو أو في البلاغة أو في أيِّ باب، ولكن تراثَه خلا خلوًّا كاملًا من أيَّة فكرة أعجميَّة؛ لحرص هؤلاء الكَمَلة رضوانُ الله عليهم على ألَّا تهجَنَ هذه اللُّغةُ، وأن تظلَّ عروبتُها نقيَّةً خالصةً، وكان يُوغِلُ في البداوة في اقتباس شواهده، فيَلتقِطُها من أفواه الأعراب الخُلَّص، ويوغِلُ حتى يأتيَ بها من قَراضِبة نَجدٍ وسماسرة تِهامةَ، كما كان يقولُ هذا خبرُ الزَّمخشري.

وكان ابنُ جنِّي روميًّا يونانيًّا، وكان قريبَ العهد بروميَّته، وكان التُّراثُ اليونانيُّ مطروحًا في كلِّ مَطْرح حولَ أبي الفتح، وكانت حداثةُ عهده بروميَّته جديرةً بأن تُغريَه بأن يَقتبِسَ منه قبسةً من هنا أو قبسةً من هناك، وكان في العربيَّة مجتهدًا، انتقَلَ بتراثها إلى طَوْر جديد رفيع، وكان حين يَنغَلُّ[1] في دقائقها تَعظُمُ في نَفْسه، وكان في بيئته علماءُ لغات، وكان شيخُه أبو علي الفارسي من المتمكِّنين في غير العربيَّة، وكان أبو الفتح يَتوقُ إلى الموازنات بين العربيَّة في رقائقها ودقائقها، وما تنطوي عليه اللُّغاتُ الأخرى في أصول بيانها، وكان يُفاتِحُ الشَّيخَ أبا علي في هذه الموازنات فيَذكُرُ له الشَّيخُ أنَّ مَن أحكَمَ العربيَّةَ وعَلِمَ غيرَها لا تَصِحُّ عنده هذه الموازناتُ؛ لأنَّ العربيَّةَ اختُصَّت بحكمة في مَبانيها، ولا يوجَدُ شيءٌ من هذه الحكمة في غيرها من اللُّغات، مع أنَّ الفارسيَّةَ التي كان أبو علي مُتبحِّرًا فيها كانت لغةَ حضارةٍ، ومُلك ورياسة، ودواوين وكُتَّاب وشعراء، وكانت متَّسِعةً، وكانوا يقولون: إنَّ العربيَّةَ المقتبسَةَ من أفواه الأعراب وقَراضِبة الخرائب أرفعُ مَنالًا، وأعزُّ سلطانًا، وأغزرُ بيانًا، وأدقُّ حِكمةً، «والقَراضِبةُ هم اللُّصوصُ، وإنَّما اقتبَسُوا من أفواههم؛ لأنَّهم يُوغِلون في البداوة».

---

(١) [أي: يَدخُلُ].

هذه الكوكبةُ من علماء اللُّغات الذين كانوا في بغداد، وكانت بغدادُ بهم كأنَّها مَجمعٌ علميٌّ لشتَّى اللُّغات والثَّقافات والحضارات، كلُّ هؤلاء لم يُدْخِلوا في تُراثهم الذي كتبُوه في العربيَّة وعلومها فكرةً واحدةً ممَّا عَلِموه في لُغاتهم وعلومهم، وذلك للسَّبب الذي قدَّمناه.

وقد أدخلَ هؤلاء العلماءُ أنفُسُهم مقتبساتٍ من علوم العربيَّة في دراساتهم للغة الفارسيَّة، حتى صارَت البلاغةُ الفارسيَّةُ كأنَّها بابٌ من أبواب البلاغة العربيَّة، وحين تُنقَلُ هذه البلاغةُ الفارسيَّةُ إلى العربيَّة تراها مختصرًا من بلاغة العربيَّة، وليس هذا مُغايرًا لما قلناه من أنَّ البلاغةَ مُستخرَجةٌ من صُلب دلالة اللِّسان العربي؛ لأنَّ الجزءَ الذي نُقِلَ إلى الفارسيَّة كان في البديع والتَّشبيهات والمجازات، ممَّا تَشترِكُ فيه اللُّغاتُ، وأمَّا علمُ المعاني، الذي هو جوهرُ البيان وجوهرُ صناعة الشِّعر، فذلك شيءٌ آخَرُ، وهو خاصٌّ بالعربيَّة لا يُنقلُ إلى غيرها.

وهناك عالِمٌ من علمائنا يَفرِضُ نَفْسَه فرضًا على مَن يَفتَحُ بابَ الحديث في صلة علمائنا بتراث الأمم، هذا العالِمُ هو القاضي الأكرمُ جمالُ الدِّين القِفْطيُّ، وكنتُ كتبتُ عنه بحثًا بعنوان: «القِفطيُّ وتراثُ الأمم»، وهو أشملُ ممَّا ذكرتُه عنه في هذا البحث، ورأيتُ أن يكونَ بديلًا لما ذكرتُه عنه فيه.

* * *

القِفْطيُّ وتُراثُ الأُمَم

كان من أهمِّ ما دفَعَني إلى أن أكتبَ عن القاضي الأكرم جمال الدِّين عليِّ ابن يوسف القِفطي؛ هو أنَّه بثرائه، وسعة معارفه، وشدَّة حَفاوته بعلوم الأُمَم الأخرى، يُبرِزُ الصُّورةَ الحقيقيَّةَ لما كان عليه سلَفُنا من العلماء، وموقفَهم من تراث العقل الإنساني في مجالات إبداعه، ثمَّ حِرصَهم على ألَّا يُفرِغوا شيئًا من ذلك في علومنا، ولستُ من الذين يُولُّون وجوهَهم نحوَ الأمس، تاركينَ اليومَ الذي يعيشونه تتحرَّقُ نارُه على جانبيه؛ لأنَّ فطرةَ الحياة هي أن نعيشَ الزَّمنَ الذي نعيشُه، وليس الزَّمنَ الذي عاشَه غيرُنا، ومَن حاولَ أن يعيشَ الزَّمنَ الذي عاشَه الآخرون فقد كَلَّفَ الحياةَ ضدَّ طباعها وعاشَ يَصطرِعُ مع الوَهم.

نَعَم إنَّنا نقرأُ الماضيَ بدقَّة صابرة لنستلَّ منه شعاعًا يُضيءُ لنا الدَّربَ الذي نَسلُكُه، فتَوجُّهُنا إلى الماضي إنَّما هو من أجل الحاضر، وتفتيشُنا في فكر مَن غبَرَ إنَّما هو من أجل مَن بقيَ، وتقليبُ الأمس على وجوهه إنَّما كان من أجل ألَّا يَنكفئَ اليوم على أَنْفِه، ومن قضايانا الحاضرة الخلافُ الدَّائرُ منذ زمن حولَ موقفنا من الفكر الذي صاغَه الآخرون، وكَدُّوا وثابَرُوا في استخراجه وإبداعه، هل نُولِّيه ظهورَنا ونتجاهلُ وجودَه؟ أم نُقبِلُ عليه؟ وإذا أقبَلنا عليه هل نُعطيه كلَّ كَدِّنا وكَدِنا إلَّا ما قلَّ ممَّا يُتيحُ لنا أن نقرأَ بهذا الأقل أَبجديَّات علومنا، ثمَّ نملأَ أوعيتَنا من هذه الفكر حتى تفيضَ؟ وحتى نُغَطِّيَ المساحاتِ العلميَّةَ والفكريَّةَ والأدبيةَ، وقاعاتِ الدَّرس وأروقةَ البحث، وتصيرَ الأبجديَّاتُ التي حصَّلناها من علومنا ضئيلةً في نفوسنا، شاحبةً زاويةً ذابلةً؟ أم أنَّ الدَّرسَ والبحثَ تدورُ

رَحاه وتلتقي حلقتاه على علومنا وإرث علمائنا، ثمَّ ندرُسُ كلَّ ما يُتاحُ لنا أن نَدرُسَه من كلام الآخرين لنعرفَ كيف يُفكِّرون، وكيف يُعالجون القضايا التي نُعالجُها؛ ليكون ذلك زادًا مَذخورًا في داخل عقولنا التي بها نفكِّرُ في علومنا، ونستخرجُ منها ونَستنبطُ، ونُعيدُ الصِّياغةَ والنَّظَر، ونأخُذُ ونَدَعُ، كما تكونُ القوَّةُ في السَّاعد المُعافى، الذي غُذِّيَ غذاءً صالحًا متكاملًا ليمشيَ بقوَّته هذه على دَرْبه هو، ويَضربَ بساعده في تُربته هو، ويَستَنبِتَ بذورَه هو.

لا شكَّ أنَّ هذا هو الذي كان عليه علماؤنا، وهو الذي عليه علماءُ الأُمَم كلِّها، وذلك؛ لأنَّ الحياةَ العقليَّةَ بكلِّ سعتها في كلِّ أُمَّة تتلخَّصُ في أنَّها صورةُ الحياة العقليَّة والنَّفسيَّة لهذه الأُمَّة، فصورةُ الحياة العقليَّة تتمثَّلُ في أصناف العلوم والشَّرائع، والنُّظم والأفكار والفلسفات، وما يَدخلُ في هذا الباب، وصورةُ الحياة النَّفسيَّة هي الفنونُ والآدابُ، وما يُساوقُها في طبيعة المعرفة، وقولُهم: «المرءُ بأَصغَريه؛ عقلِه ولسانِه» هو ما نقولُه من أنَّ الصُّورَ العقليَّةَ والنَّفسيَّةَ هي محصولُ الأُمَّة؛ لأنَّ اللِّسانَ الذي هو الأصغرُ الثَّاني إنَّما يَسكُنُ في الفؤاد وليس في الفم؛ لأنَّ اللُّغةَ نفسَها تُصاغُ في العقل والقلب، واللِّسانُ بَضعةٌ من اللَّحم يُحرِّكُها الضَّميرُ.

وقد أصابَ الأوَّلُ حين قال:

إنَّ الكلامَ لفي الفؤاد وإنَّما ... جُعِلَ اللِّسانُ على الفؤاد دليلا

وإذا كان الأمرُ كذلك -وهو كذلك بلا رَيب- كان تراثُ الأُمَم هو نفسَ الأُمَم، من حيث هي حيٌّ ناطقٌ، كما أنَّ إرثَ العالَم هو نَفْسُ العالم، وقد قلنا ما هو أخصُّ من ذلك حين جعلنا أسلوبَ الرَّجل هو نفسَ الرَّجل؛ لأنَّ الأسلوب

في الحقيقة هو الصور العقليَّة والنفسيَّة التي أجراها صاحب الكلام في كلامه، وحين نفصلُ من الإنسان الصُّورَ العقليَّةَ والنفسيَّة لا يبقى إلا اللحم والعظم، وهذا قاسم مشترك بين مخلوقات الله ناطقها وصامتها، وما دام تراث الأُمَم هو ذات الأمم، كان من الواجب أن يقوم الدرس في كل أمة على إرثها الذي استخرجه علماؤها من أصلاب عقائدها وثقافاتها، وحضارتها وطباعها، ولحمها وعظامها، ولأنَّ تراثَها هذا فيه ذاتُها بكلِّ ما في الذَّات من نوازعَ وهواجسَ، فيه هُدَاها وضَلالُها، وخَيرُها وشرُّها، وبِرُّها وفجورُها، وتلك مُجملُ خصائصها، وبمقدار إصابة الدَّرس يكونُ تأصيلُ هذه الخصائص وتمييز الأمم.

وإذا كانت الأفكارُ تتلاقى وتتهادَى وتَرسمُ في كثير من الأحوال خطًّا واحدًا يهتدي به الإنسانُ أبيضُه وأسودُه، فليس مرجعُ ذلك إلى تعميمٍ من الفكر، يَجعلُ من الممكن الاكتفاءَ بِفكر زيد عن عمر، وبعقل هذه الأُمَّة عن تلك، وإنَّما مرجعُ التَّلاقي في الفكر الإنساني إلى طبيعة الإنسان، وأنَّه لا يزالُ بقيَّة من إرث أبيه آدمَ تجري في الجنس كلِّه، وتَنبضُ في القاع السَّحيق من كهوف النَّفس نبضًا قويًّا، يَسمَعُه الكلُّ، وتَخلقُ لغةً واحدةً يتفاهمُ بها الخَلقُ جميعًا، ولا يَرتابُ مُدقِّقٌ في أنَّ سيطرةَ فكر أُمَّة على أُمَّة هو نفسُه سيطرةُ هذه الأُمَّة على تلك، وأنَّ مَحْقَ تراث الأمم هو عينُه مَحْقٌ للأمم نفسها، من غير تجاوز في اللَّفظ، وأنَّ إراقةَ الفكر ضربٌ من إراقة الدِّماء، وأنَّ هدمَ مَعاقله وصروحه هو هدمٌ للقلاع والحصون، وأيُّ تقدير تراه في نفسك لهذا الإنسان الصَّدَى الذي يُفكِّرُ بعقل غيره، ويقيسُ بغير قياسه، ويَهْجسُ بغير هواجسه، ويَنبُضُ بغير قلبه، ويرى بغير

عينه، ويَنْطقُ بغير لسانه، أيُّ مَسْخٍ تُمسَخُ به الأفرادُ وتُمسَخُ وتُنسَخُ به الأُمَمُ - أبشعُ من هذا المسخ وهذا النَّسْخ الذي نتشيَّعُ له ونَجِدُّ في سبيله.

لقد آنَ لنا بعد هذه اللَّأواء التي كابَدناها من السَّيْر في هذا الطَّريق الذي أتعَبَنا منذ أوائل هذا القرن - أن نبحثَ عن الطَّريق الذي نخرجُ به من سَراديب التِّيه التي أدخَلنا أنفسَنا فيها طواعيةً ومُغتَبطينَ، وحَسْبُنا هذه التَّمزُّقاتُ التي نعيشُها وهذا التَّخلُّفُ الذي ركبَ ظهورَنا، والذي نُعِدُّ له ظهورَ أبنائنا؛ لأنَّنا نُربِّيهم على المنهج البشع الذي رُبِّينا عليه، وهو إدارةُ ظهورهم لذَواتهم الممثَّلة في تراثهم وعلومهم وحضارتهم، وأن يَعيشوا كالفَراش الحائم حولَ منابع أضواء الآخرين، يَحترقُ به مَن يَحترقُ، ويبقى ضعيفًا متهافِتًا مَن يبقى، ومَن لم يَربِطْ تخلُّفَ الإنسان العربي وقهرَه والاستبدادَ به وتَسلُّطَ النُّظم السياسيَّة الفاسدة عليه، مَن لم يَربِط هذا بفساد الحياة الفكريَّة فقد أضلَّ نفسَه ضلالًا مبينًا، وليس هناك مجتمعٌ قويٌّ راجحٌ لا يقومُ على حياة فكريَّة صحيحة راجحة.

وكلَّما قرأتُ في آثار عالِم من علمائنا الذين حفِظُوا علومَ الآخرين، وظلَّت مادَّةُ الدَّرس عندهم عربيَّةً خالصةً - يُكابِدون حولَها ويُكابدون بها، كلَّما قرأتُ في آثار عالِم من هؤلاء ثارَت في نفسي هذه الخواطرُ؛ لأنِّي مُستيقِنٌ يقينًا لا يُخالجُه رَيبٌ أنَّ ذُلَّ التَّبعيَّة الفكريَّة هو الذُّلُّ المقيتُ البَشعُ، وهو أبشعُ وأهولُ من التَّبعيَّة السِّياسيَّة؛ لأنَّ ذلَّ العقول والقلوب والخواطر هو الذُّلُّ في مُستقرِّه وصميمه، وإذا سقطَت الأوطانُ في مُستنقع التَّبعيَّة استخرَجَتها العقولُ الحُرَّةُ الأَبيَّةُ الآبيةُ، أمَّا حين تَسقطُ العقولُ نفسُها في مُستنقع التَّبعيَّة فإنَّه لا مَنجاةَ لها

من هذه التَّهلُكةِ إلَّا بجهاد أشدَّ من الجهاد في استنقاذ الأوطان.

وهذه الحقائقُ النَّاصعةُ يُنكِرُها كثيرٌ منَّا، وليس هذا غريبًا؛ لأنَّنا رُبِّينا في غير حجور آبائنا، وارتَضَعنا من غير ثُدِيِّ أُمَّهاتنا، فأنكَرنا آباؤنا، وأنكَرَتنا أمُّهاتُنا، وأنكَرَ بعضُنا بعضًا.

وكلُّ كاتب في كلِّ أُمَّة يرمي بوَهج فكره ليُضيءَ جانبًا من جوانب حياة أُمَّته، ويَجعلَك إن كنتَ منها تزدادُ وثوقًا بها وحبًّا لها وانتماءً، وتتحرَّقُ في الزَّود عن كِيانها وشُموخها وعزَّتها وإبائها، وإن لم تكُن منها عطَفَك عليها وأفرَغَ في يقينك واجبَ احترامها، وتقديرَ عطائها، والاعترافَ بأياديها البيضاء على مسيرة الإنسان وتاريخ تَحضُّره.

حتى اليهودُ... كلَّما قرأتَ لهم كتابًا في فكرهم العِبْراني وجدتَ فيه ريحَ ولد إسحاق من يوم أن جاءوا أباهم عشاءً يبكون، كما تَجِدُ فيه الرَّنينَ الأَسيفَ الذي يَعزِفونه حولَ مسيرة حياتهم، واضطهاد الأُمَم لهم، مع أنَّهم الشَّعبُ المتفوِّقُ المختارُ.

وهكذا كلما ازدَدْتَ قراءةً للكُتَّاب الإنجليز ازدَدْتَ احترامًا واقترابًا من أُمَّة الإنجليزي، وكلَّما ازدَدْتَ قراءةً للكُتَّاب الألمان ازدَدْتَ اقترابًا واقتناعًا بهذه الأُمَّة؛ لأنَّ رسالةَ الكاتب كما قلتُ ليست صُنعَ دعايةٍ، وإنَّما تجليةُ جوانب العظمة والشُّموخ في حياة الأمم.

وإذا ما تناولتَ كتابًا من الكتب التي يَكتبُها إخوانُنا المتنوِّرون وجدتَ أمرًا غيرَ ذلك، وجدتَ وصفَ العقليَّة العربيَّة بالسَّطحيَّة والتَّهويش، فالفكرُ

مشوَّشٌ ليس له منهجٌ ولا ضابطٌ، وسطحيٌّ بدائيٌّ، يَتَّسِمُ بالنَّظرة الجزئيَّة، وهو كَسيحٌ لا يستطيعُ أن يَرقي إلى الأُطُر النَّظريَّة، والشِّعرُ زَفَّةُ نفاق في مواكب الطَّواغيت، وإذا رأيتَ شاعرًا مُشرِقًا؛ فلأنَّ أصولَه رومانيَّةٌ أو يونانيَّةٌ، وإذا رأيتَ عالِمًا ذا فَهْم؛ فلأنَّه سرَقَ فكرَ «أرسطو» كما سرَقَ الفلاسفةُ العربُ فلسفةَ اليونان، وعاشُوا كالبَهلوانات يَحجِلون على شواطئها.

وهكذا تَجِدُ الحَلْقةَ مُغلَقةً في وجهك، فلا يَسعُك إلَّا أن تزدريَ نفسَك وأُمَّتَك، واليومَ الأسودَ الذي وُلِدتَ فيه من أصلاب هؤلاء الهَمَج، ومُدَّ يدَك إلى ما شئتَ ولو كانت مذكِّرةً يَكتُبُها مبتدئٌ لمبتدئ، وإذا أردتَ أن تَعرفَ مصدرَ هذه المادَّة العلميَّة القبيحة والغريبة، والتي لا تَجِدُها عند أُمَّة من الأُمَم كما لا تَجِدُ شيئًا منها عند علمائنا الذين كان لهم اطلاع على علوم الآخرين ومناهجهم، وربَّما كان أوسعَ وأعمقَ وأخصبَ من اطلاعنا -أقولُ: إذا أرَدْتَ أن تَعرفَ مصدرَ هذا الفكر البَشع والمدمِّر لكِياننا، وكِيان طلَّابنا وأبنائنا من بعدنا، فاقرَأ رسالةَ «الطَّريق إلى ثقافتنا» التي كتبَها الأستاذُ محمود محمد شاكر الذي تنبَّه إلى هذا منذ زمن بعيد وحذَّرَ من خطره، وقد أعذرَ بكشْفِ مصادره في هذه الرِّسالة العظيمة؛ ليَحيا مَن يحيا عن بيِّنة، ويَهلِكَ مَن يَهلِكُ عن بيِّنة، ولولا خشيةُ طول الكلام قبلَ اللِّقاء بالقاضي الأكرم لذكرتُ قصَّةَ هذا، وإن كنتُ أعتبرُ هذا مدخلًا ضروريًّا للحديث عن القاضي الأكرم الذي اخترتُ من جوانبه هذا الجانبَ، وهو دراستُه وخبرتُه الواسعةُ بعلوم الأُمَم الأخرى، وأنَّه ليس بِدْعًا في ذلك؛ لأنَّ كثيرًا من شيوخنا الأجلَّاء كانوا يَكتُبون كتبَهم بأكثر من لسان، والزَّمخشريُّ الذي قيدَ

علمه ممَّا تراجَزَتْ به الأعرابُ على أفواه القُلُب[1]، كان من حفَّاظ آداب الأمم، واقرَأْ له كتابَ «ربيع الأبرار»، وقَلَّ أن تَجِدَ فيه صفحةً من تراث العرب، وإنَّما هو تراثُ الفرس، واليونان، والهنود.. وغيرهم من الأُمَم ذاتِ الآداب والحضارات؛ ثمَّ لا تَجِدُ قطرةً واحدةً من هذا البحر الزَّاخر من الأعجميَّات في معالجته لمسألة من مسائل العربيَّة، لغةً ونحوًا وبيانًا وتفسيرًا، وحديثًا، حتى كتابُ «الأمثال» الذي كان مَظِنَّةَ أن توجَدَ فيه، وإنَّما هذا ماءٌ وهذا ماءٌ، نَعَم إنَّ سعةَ علمه وغزارةَ مادَّته كانت -كما قلتُ- قوَّةً في عقله ونفسه، يُعالجُ بها ما يُعالجُ من مسائل العلم، وهذا شيءٌ وتفسيرُ المعرفة في ضَوء الأعجميَّات شيءٌ آخَرُ، أمَّا وضعُ الأعجميَّات مكانَ المعرفة الإسلاميَّة فهذا هو البلاءُ الماحقُ الذي قدَّمنا الكلامَ فيه.

ولن أُفصِّلَ القولَ في حياة القِفطي، والزَّمنِ الذي عاشَ فيه؛ لأنَّ موضعَ ذلك هو أروقةُ الدَّرس، وحسبُنا أن نُشيرَ إلى أنَّه وُلدَ في أحد ربيعي ثمانٍ وستِّين وخمسِ مئةٍ بمدينة قِفْط، وقد وصَفَها بقوله: «من الصَّعيد الأعلى، إحدى الجزائر الخالدات، حيث الأرضُ الأربعةُ وعشرون في أوَّل الإقليم الثَّاني، وبها قبر قِبْط بن مِصْر بن سام بن نوح عليه السلام»[2].

وينتهي نسَبُ الشَّيخ إلى تَيم بن شَيبان بن ثعلبة بن عُكَابَة بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، ويُلَقَّب بالقاضي الأكرم جمال الدين علي بن يوسف القِفطيِّ، ويُلقَّبُ والدُه بالقاضي الأشرف، وكان أبوه كاتبًا مُنشِئًا، وكانت أُمُّه بدويَّةً من عرب قُضاعة، وكانت حَسَنةَ العبادة، وذاتَ صفاء ودِين، وكان إذا

---

(١) [جمع قَليب، وهو البئرُ].

(٢) «معجم الأدباء»، ياقوت الحموي: ١٥/ ١٧٨، ١٧٩.

أرادَ سَفَرًا أعدَّت له حاجتَه وهي تبكي وتُنشِدُ:

أُجهِّـزُ زيـدًا للرَّحيـل وإنَّنـي بتجهيـز زيـد للرَّحيـل ضَنيـنُ

وقد اتَّفَقَ في أيَّام صباه أن ارتقَى سطحَ الدَّار لبعض شغله، فوقَعَت عينُه على جاريتين للجار كانتا مذكورتينِ بالجمال والدَّلال، وقال في وصفهما: كانتا من أحسن بنات الأرض، فشُغِلَ خاطرُه بهما، وفي الوقت الذي تَمَّ فيه ذلك أنشَدَتهُ والدتُه قولَ الأحوص:

ثِنتـانِ لا أَرضَـى انتهَاكَهمـا عـرْسُ الخليـل وجـارةُ الَجنْـبِ

فلمَّا سَمِعَ ذلك كأنَّ ماءً قد صُبَّ على نار كما قال، فلم يَرْقَ السَّطحَ بعدَ ذلك أبدًا، وكان يَحتمِلُ حرَّ الصَّيف ولا يَرقَى.

وكان يَرحلُ إلى القاهرة للأخذ عن علمائها، ثمَّ إلى الإسكندريَّة، وأقامَ زمنًا في حلقة أبي طاهر السِّلَفي، ولقيَ محمَّدَ بنَ محمَّد بن الأنباري وأجازَه في رواياته.

وصَحِبَ أباه في سفره إلى بيت المقدس، وكان والدُه واليًا عليها من قِبَل الملك العزيز، ثمَّ رحَلَ بعد ذلك إلى حلب وأقام بها زمنًا، وكان زاهدًا في خدمة الملوك، مؤثِرًا البقاءَ في قعر داره كما كان يقولُ، وَلُوعًا بقراءة الكتب واقتنائها، مُتبحِّرًا في علوم كثيرة، وله رسائلُ أدبيَّةٌ ذكَرَ «ياقوتُ» منها ثلاثًا أملاها القاضي عليه، ولغتُه متميِّزةٌ يَسهُلُ على الباحث أن يُحدِّدَ سَمْتَها، بُنيَت على صنعة في البلاغة لطيفة، تُخالطُها فصاحةٌ ونَصاعةٌ، وبداخلها تَعمُّلٌ وتكلُّفٌ، ترى فيها مَيلًا ظاهرًا إلى السَّجع، كما ترى فيها فُصوصًا من كلمات وجمل فيها بقيَّةٌ من الطَّبع المتمكِّن من البيان، يُردِّدُ المعانيَ ويُقلِّبُها على وَجْهَيْها، فيُكثرُ في كلامه

الطِّباقَ والمقابلةَ، وكان يُكثِرُ من المشاكلات اللَّفظيَّة التي تُورِثُ الكلامَ تشابُهًا في الرَّنين، وسهولةً في المخرَج، وعذوبةً في السَّمع، وذلك مثلُ قوله: «ودعا عَدوَّه لعوده وأَيَّدَ ساعدَه ومساعدَه.. رَبُّ المَملكةِ ومالِكُها.. كامِن كُمون الكمي في كَمينِه.. وسكن سكانها.. وكنت في كنانتها».

وقد كان والدُه يُكاتبُ القاضيَ الفاضلَ والقاضي يُكاتبُه، وهناك شبَهٌ بين طريقة القِفطيِّ وطريقة الفاضل.

وشعرُه ضعيفٌ وهو قليلٌ، وقد رَوَى «ياقوتُ» منه مقطوعاتٍ قليلةً، وقد ذكَرَ «ياقوتُ» عنايةَ القاضي باقتناء الكتب، قال: «لم أرَ مع اشتمالي على الكتب، وبَيْعي لها وتجارتي فيها، أشدَّ اهتمامًا منه بها، ولا أكثرَ حرصًا منه على اقتنائها، وحُصِّلَ له منها ما لم يُحصَّلْ لأحد».

وهذا الذي ذكَرَه «ياقوتُ» واضحٌ في كتابات القاضي الأكرم، فقد كان يَذكُرُ رسائلَ العلماء ومقالاتِهم وما فُقِدَ منها، ويَذكُرُ سعيَه الدَّائبَ للوصول إلى ما يُمكِنُ أن يَصِلَ إليه منها، وقد حُصِّلَ له من ذلك ما لم يُحصَّلْ لغيره، فكانت مكتبتُه عامرةً بنوادر المخطوطات من تراث العرب والعجم، وهناك مقالاتٌ لـ «أرسطو وبطليموس» وغيرهم فُقِدَت من خزائن اليونان، وقد اجتهدَ في تحصيلها، وكانت مصرُ والشَّامُ من مراكز الثَّقافة اليونانيَّة والرُّوميَّة، وكان تراثُ اليونان يكونُ في مكتبات مصرَ والشَّام كما يكونُ في بلاد اليونان.

ومؤلَّفاتُ القاضي تَغلبُ عليها كتبُ التَّاريخ، ولا تَخلو من الدِّراسات اللُّغويَّة والإسلاميَّة، ويُمكِنُ تصنيفُها على هذا الأساس:

١- مؤلَّفاتٌ في تاريخ الأُمَم، وهي:

أ- تاريخُ مصر من ابتدائها إلى الملك صلاح الدِّين، في ستِّ مجلَّدات.

ب- تاريخُ المغرب.

ج- تاريخُ اليمن منذ اختُطَّت إلى الآن.

٢- مؤلَّفاتٌ في تاريخ الأُسر الحاكمة وممالكهم، وهي:

أ- تاريخُ محمود بن سُبُكتكين وبنيه إلى حين انفصال الأمر عنهم.

ب- أخبارُ السلجوقيَّة منذ ابتداء أمرهم إلى نهايته.

ج- الإيناسُ في أخبار آل مرداس.

٣- مؤلَّفاتٌ في التَّراجم، وهي:

أ- أخبارُ المحمَّدِين من الشُّعراء.

ب- الدُّرُّ الثَّمينُ في أخبار المتيَّمين.

ج- كتابُ مَن ألْوَت الأيَّامُ إليه فرفَعَتْهُ ثمَّ التَوَت عنه فوضَعَته.

د- الأَنيقُ في أخبار ابن رَشيق.

هـ- المفيدُ في أخبار أبي سعيد.

و- أخبارُ المُصَنِّفين وما صنَّفوه.

ز- أخبارُ النَّحويِّين.

ح- أخبارُ الحُكماء.

ط- مشيخةُ زيد بن الحسن الكِندي.

٤- مؤلَّفاتٌ في اللُّغة:

أ- الاستيعابُ في وجوه «كلَّا».

ب- الإصلاحُ لما وقَعَ من الخَلَل في كتاب الصِّحاح للجوهري.

ج- شرحُ المفُصَّل.

د- كتابُ الضَّاد والظَّاء ما اشتبَه خَطُّه واختلَفَ لفظُه.

٥- مؤلَّفاتٌ في السُّنَّة:

أ- الكلامُ على الموطَّأ.

ب- الكلامُ على صحيح البخاري.

٦- مؤلَّفٌ في العقائد:

- الرَّدُّ على النَّصارى وذِكرُ مَجامعهم.

وأخيرًا كتابُ «نُهْزة الخاطر ونُزْهة النَّاظر في أحسن ما نُقِل من على ظهور الكتب».

ولم يُطبَع من هذا التُّراث فيما أعلمُ إلَّا كتابُ «إنباه الرُّواة في أخبار النُّحاة»، وكتابُ «أخبار الحكماء»، وقد ذكَرَ المرحومُ أبو الفضل إبراهيم أنَّ «أخبارَ

المحمَّدين من الشُّعراء»(١) منه نسخةٌ مصوَّرةٌ بدار الكتب رقم «٢٢١٧» تاريخ تيمور، وأصلُ النُّسخة كانت بالأزهر موقوفةً على رواق الصَّعايدة، والموجودُ منها من أوَّل ترجمة محمَّد بن أحمد الحوفي إلى ترجمة محمَّد بن سعيد البغدادي، وكتَبَ العلَّامةُ أحمد تيمور على ظهر النُّسخة: «ولا يُدرى أكتَبَ المصنِّفُ شيئًا بعد ذلك أم ضاعَت بقيَّةُ النُّسخة؛ لأنَّه أحالَ في موضع على أسماء بعدَ هذا الحرف»(٢).

وهذه المؤلَّفاتُ واضحةُ الدَّلالة على سعة علم القاضي، وإن كانت من المؤلَّفات التَّاريخيَّة، وكان علمُ التَّاريخ عند الأوائل بمثابة دائرة للمعارف العربيَّة والإسلاميَّة؛ لأنَّ المؤرِّخَ محتاجٌ إلى علم الشِّعر؛ لأنَّ جزءًا مهمًّا من التَّاريخ جاء في الشِّعر، والعِلمُ بالشِّعر يقتضي العِلمَ باللُّغة والنَّحو، وكذلك لا مَحيدَ للمؤرِّخ عن العلم بالعقائد؛ لأنَّ العقائدَ كانت أساسَ الاختلاف بين الفِرَق، وهذه الفِرَقُ شغَلَت حيِّزًا مهمًّا في التَّاريخ الإسلامي.

وهكذا كانت المادَّةُ التَّاريخيَّةُ توشِكُ أن تكونَ مزيجًا فكريًّا متكاملًا، فلا يستطيعُ المؤرِّخُ أن يَكتُبَ تاريخَ المأمون مثلًا إذا لم يكُن مستوعِبًا لقضيَّة خَلْق القرآن وحادثةِ الإمام أحمد بن حنبل، ولا يستطيعُ أن يَكتبَ التَّاريخَ الإسلاميَّ مَن يَجهلُ عقائدَ الشِّيعة والخوارج والإباضيَّة والجَهميَّة والقَدَريَّة.

ولذلك نَعُدُّ القِفْطيَّ المؤرِّخَ من علماء الإسلام؛ بمعنى أنَّه من علماء اللُّغة

---

(١) [طُبِعَ هذا الكتاب بعنوان: «المحمَّدُون من الشُّعراء وأشعارهم» في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، بتحقيق: محمد عبد الستار خان، سنة ١٣٨٦- ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٧- ١٩٦٩م في جزءين].

(٢) مقدمة «إنباه الرواة»: ٢١.

والعقائد والتَّفسير والحديث والفقه؛ بل والطِّبِّ والهندسة والرِّياضة وعلوم الهيئة؛ لأنَّه أَرَّخَ لعلماء هذا الشَّأن، وقد ذكَرَ هو أنَّ المَرْزُباني من اللُّغويِّين وإن لم يكُن قد تخصَّصَ في النَّحو والصَّرف؛ لأنَّه كتَبَ في أخبار جامعيها ومُصنِّفيها والمتصدِّرين لإفادتها(١).

قال ياقوتُ: «كنتُ أُلازِمَ منزلَه، ويَحضُرُ أهلُ الفَضْل وأربابُ العلم، فما رأيتُ أحدًا فاتَحَه في فنٍّ من فنون العلم، كالنَّحو واللُّغة والفقه والحديث وعلم القرآن والمنطق والأصول والرِّياضة والنُّجوم والهندسة والتَّاريخ والجرح والتعديل، وجميع فنون العلم على الإطلاق -إلَّا قام به أحسنَ قيام، وانتظَمَ في وسَط عِقْدهم أحسنَ انتظام»(٢).

هذا العالِمُ السُّنِّيُّ السَّلفيُّ المتبحِّرُ -والذي ترى وصفَ ياقوت له- لا يرى الاطلاعَ على علوم الأُمَم الأخرى ضربًا من الرَّفاهية العقليَّة، وإنَّما يرى البحثَ في علوم الأُمَم الأخرى ضربًا من ضروب العبادة، يرجو الباحثُ بها المثوبةَ له ولقارئها، مع أنَّ المكتوبَ والمدروسَ منه فلسفاتٌ وثنيَّة، وآراء إلحاديَّة.

يقولُ في مقدِّمة كتاب «أخبار الحكماء» بعدما بيَّنَ مرادَه بالحكمة، وأنَّ أركانَها هي المنطقُ والطَّبيعيُّ والإلهيُّ يعني: علومَ الطَّبيعة والفلسفة والإلهيَّات، وعلومَ الطَّبيعة؛ نعني: الفلكَ والطِّبَّ والرِّياضةَ والهندسةَ - يقولُ: «وقد عزمتُ بتأييد الله على ذكر مَن اشتُهرَ ذِكرُه من الحُكماء من كلِّ قبيلة

(١) إنباه الرواة: ٣/ ١٨٠.

(٢) معجم الأدباء: ١٥/ ١٧٩.

وأُمَّة، قديمها وحديثها إلى زماني، وما حُفِظَ عنه من قول انفرَدَ به أو كِتاب صنَّفَه أو حِكمة عليَّة ابتدَعَها، ونُسِبَتْ إليه، فإنِّي رأيتُ ذلك من الأمور التي جُهِلَت، والتَّواريخ التي هُجِرَت، وفي مطالعة هذا اعتبارٌ بمَن مضَى، وذِكرٌ لما سَلَفَ، وهو اعتبارٌ أرجو به الثَّوابَ لي ولقارئه إن شاء اللهُ تعالى»(١).

وقد أَوغَلَ في التَّاريخ القديم، وذكر حكماء عاشوا قبلَ الطُّوفان، وبدأ كتابَه بنبي الله إدريس: وهو أوَّلُ مَن عَلِمَ الحِكمةَ وكانت إلهامًا؛ لأنَّ النَّظَرَ في الهيئة والأفلاك لا يُهتدَى إليه إلا بإلهام. هكذا قال، وقد اختُلِفَ في مولد إدريس -عَلَيْهِ السَّلَامُ- هل ولد في مصر؟ أم ولد في بابل؟ وماذا كان يُسمِّيه المصريون؟ وماذا كان يُسمِّيه البابليُّون؟ وعن مَن أَخذَ؟ وكيف حكَمَ الأرضَ؟ ومَن هُم ولاتُه؟ وكيف كانوا؟ كلُّ ذلك تكلَّمَ فيه القِفْطيُّ، وهو في هذا التَّاريخ القديم يُعوِّلُ على الرِّوايات والحكايات، وكثيرًا ما تُداخِلُها الأساطيرُ، وكان يأخُذُ ما له مُرَجِّح يُرجِّحُه ويَترُكُ ما لا يُوافقُ العقلَ.

يقولُ وهو ينتقِدُ أخبارَ «إسقلبيوس» أحد مَن حكَّمَهم هرمسُ الذي هو إدريسُ، «وله أخبارٌ عند النَّصارى وفي كتبهم، تجري مجرى الأسماء، لا يُلائمُها العقلُ، فأضربتُ عن ذكرها».

وقد أكثرَ من الحديث عن «إسقلبيوس» وحكمته، وعلمه بالطِّبِّ، وكان يَستأنسُ في هذا بمرجِّحات تاريخيَّة، مثلَ أن يَجِدَ في كتاب العهود تعظيمَ «بُقراط» لـ «إسقلبيوس»، وأنَّه كان يَقرِنُ اسمَه باسم الله في قسمه لتلاميذه،

(١) المقدمة: ١.

ويقولُ: أُقسمُ عليكم -معاشرَ الأولاد- بخالق الموت والحياة، وبأبي وأبيكم «إسقلبيوس»، و«إسقلبيوسُ» كان تلميذًا لنبي الله إدريس الذي كان يُسمِّيه المصريُّون: «هرْمس» واليونانيُّون: «أرميس»، وقد كان أحدَ النُّجباء من تلاميذ إدريس -عليه السلام- وبرَعَ في الحكمة، وطرَّقَ طرقَ صناعة الطِّبِّ، ووضَعَ لها ما يُشبِهُ الميثاقَ، وكان لا يُعَلِّمُ الطِّبَّ إلَّا لأهل الطَّهارة والعفاف والتُّقَى، ولا يُعلِّمُ الأشرارَ ولا أصحابَ الأنفس الخبيثة، وقد ذكَرَ عنه «بُقراط» ذلك.

وكان القِفْطيُّ يؤرِّخُ -أحيانًا- للعلوم من خلال تأريخه للرِّجال، وقد وقَفَ عند علم الطِّبِّ ليؤرِّخَ له، وأشارَ إلى أنَّ هذا من المسالك الصَّعبة، وأنَّ النَّاسَ اختلَفُوا في نشأته، وقد ذكَرُوا أنَّ «إسقلبيوس» هو أوَّلُ مَن استنبَطَه، وأنَّه كان بَيْنه وبين «جالينوس» خاتم الأطبَّاء الثَّمانية خمسةُ آلاف سنة، والأطبَّاءُ الثَّمانيةُ هم: «إسقلبيوس الأوَّلُ، ومينس، وغورس، وبرمافيذس، وأفلاطون الطَّبيبُ، وإسقلبيوس الثَّاني، وبُقراط، وجالينوس»، ومُدَّةُ ما بين ظهور أوَّلهم ووفاة آخرهم خمسةُ آلاف وخمسُ مئةٍ وستون سنةً.

وقد ذكَرُوا أنَّ «بقراطَ» من نسل «إسقلبيوس»، واعترَضَ القِفطيُّ على ذلك؛ لأنَّ «إسقلبيوس» كان قبل الطُّوفان، ولم يَبْقَ بعدَ الطُّوفان إلَّا ذُرِّيَّةُ نوح عليه السلام.

وكان الأطبَّاءُ اللَّاحقون مفتونينَ بـ «إسقلبيوس»، وقد تَطرَّفُوا في الاعتقاد فيه حتى رُويَ أنَّ بمدينة روميَّة صورةً يسألونَها في الطِّبِّ فتكلِّمُهم بعلم «إسقلبيوس».

وقد ترجمَ القِفطيُّ لـ «بقراط» وأثْنَى عليه، وقال: كان فاضلًا متألِّهًا

ناسكًا، يُعالِجُ المرضى احتسابًا، طوَّافًا في البلاد وجوَّالًا عليها، وكان قد نشأ في مدينة حمص بالشَّام، وكان يَقصدُ إلى غِيَاض دمشق، وكانت له صُفَّةٌ يُعلِّمُ فيها تلاميذَه، ولا تزالُ تُعرفُ في الشَّام بصُفَّة «بقراط». وذكَرَ القِفطيُّ مؤلَّفات «بقراط»، وقد قام «جالينوس» بشرحها، وذكَرَ القِفطيُّ مَن ترجموها، وهي كتبٌ في الكَسْر والجِراحات، والأخلاط، والماء والهواء، ومنها مقالاتٌ في الأمراض الحادَّة، وجراحات الرَّأس.

وذكَرُوا أنَّ «أزدشير» ملكَ الفرس قد مَرِضَ في زمن «بقراط»، ودعاه لمعالجته فأَبَى «بقراطُ»؛ لأنَّه كان عدوًّا لليونان، ولمَّا اشتدَّ عليه المرضُ بذَلَ لـ «بقراط» ألفَ قنطار من الذَّهب فأَبَى، وقد عالجَ ملوكَ اليونان، وأقام عندَهم مُدَّةَ مَرَضهم، ثمَّ ترَكَهم بعد العلاج تنزُّهًا عنهم وعن دنياهم.

وقد جاء «جالينوسُ» بعد «بقراط» بنحو ستِّ مئة سنة، وهو الذي شرَحَ كتبَه وجدَّدَ علمَه، ولم يكُن أحدٌ في زمانه أعلمَ منه بالطِّبِّ، وكان إمامًا في علم البرهان، وله أكثرُ من مئة مؤلَّف، وكان أبوه ماسحًا، ولم يكُن في زمن أبيه أعلمُ منه في علم المساحة، وقد ذكَرُوا أنَّ «جالينوس» كان في زمن المسيح، وأنَّه قيل له: إنَّ رجلًا في آخر دولة قيصر ببيت المقدس يُبرئُ الأَكمَه والأبرصَ، ويُحيي الموتى. فخرجَ لملاقاة المسيح فأدرَكَه الموتُ في جزيرة صقليَّة، هكذا روى القِفطيُّ، وقد ذكَرَ في موضع آخَرَ أنَّ «جالينوس» كان بعد المسيح بمئتي سنة، وهذه رواياتٌ كان القِفطيُّ يَكتبُها في مواضعَ متفرِّقة من كتابه، وقد يَقِفُ ليحلِّلَ ويَنقُدَ ويُراجِعَ.

وقد أحصَى القِفطيُّ كتبَ «جالينوس» نقلًا عن ابن النَّديم، وذكَرَ

ترجماتِها، ومنها ما تُرجِمَ ثلاثَ ترجمات.

وقد ذكَرَ «جالينوسُ» ما يدُلُّ على أنَّه زارَ صعيدَ مصرَ، وحكَى أنَّه رأى بعضَ أهالي النُّوبة على عادات طبِّيَّة خاطئة في المعالجة والفَصْد.

ولم يُرتِّب القِفْطيُّ كتابَه على أساس الموضوعات، فلم يَذكُر طبقاتِ العلماء في الفنِّ الواحد، كما لم يُرتِّب ذِكرَ الحُكماء على أساس تاريخي، وإنَّما كان التَّرتيبُ الأبجديُّ هو الأصلَ، فذكَرَ «بختيشوع» وهو طبيبٌ مشهورٌ في خلافة بني العبَّاس بعد «بقراط» وقبل «جالينوس»، كما أنَّه لم يُفرِد علماءَ اليونان، وإنَّما كان يَذكُرُ العربَ والعجمَ مع اختلاف الأزمنة والأمكنة ما دامَت الأبجديَّةُ تقتضي ذلك، وهذا وإن كان وجهًا يُسهِّلُ استخراجَ ترجمة ما يُرادُ ترجمتُه إلَّا أنَّه يقومُ على تمزيق التَّسلسل الزَّمني لفنون الحكمة، ومَن أرادَ معرفةَ تاريخ علم أو تحديد طبقات علماء فنٍّ واحد في زمن واحد أو أزمنة متتابعة؛ فعلَيه أن يَفعلَ ذلك بنفسه، وأن يَستخرجَه من الكِتاب، وقد كان كذلك في كتاب «أخبار النحاة»، وقد ذكَرْنا أنَّه لا يَكتُبُ تراجمَ الأطبَّاء إلَّا مَن له علمٌ بالطِّبِّ، ولا يَكتُبُ تاريخَ علماء الرِّياضة إلَّا مَن له علمٌ بعلوم الرِّياضة، وهكذا.

والقارئُ لكتاب «أخبار الحكماء»، وكتاب «أخبار النُّحاة»، يتأكَّدُ من أنَّ علمَ القِفطي بعلوم الحكمة التي هي المنطقُ، وعلوم الطَّبيعة والرِّياضة، والفلك والهندسة والهيئة، وعلوم الفلسفة والإلهيَّاتِ، يتأكَّدُ أنَّ علمَ القِفطي بدُرُوبها ومصادرها وتاريخها كعِلمه بمصادر النَّحو واللُّغة والشِّعر.

وكان يُعْنى بأسانيد الكتب في هذه العلوم، وقد ذكَرَ أنَّ كتابَ «إقليدس»

المهندس النَّجَّار، الذي يُسمِّيه العربُ «الأصولَ» لم يكُن من وضع «إقليدس»، وإنَّما ألَّفَه مؤلِّفٌ يونانيٌّ قديمٌ اسمُه «أبلينيوس» النَّجَّارُ، وقد وُجِدَ كتابُ «أبلينيوس» هذا في خِزانة ملك من ملوك اليونان، وأنَّ الذي فَكَّ رموزَه وشَرَحَ غموضَه هو «إقليدس»، ولم يَستطِع ذلك غيرُه من أهل زمانه، فنُسِبَ الكِتابُ إليه، وكان الكِتابُ في خمسَ عشرةَ مقالةً، وقد شرَحَ «إقليدس» منها ثلاثَ عشرةَ مقالةً، وقد عثَرَ أحدُ تلاميذ «إقليدس» على المقالتين الرَّابعةَ عشرةَ والخامسةَ عشرةَ، وقد شرَحَ أبو الحسن بن الهيثم هذه المقالاتِ، وذكَرَ شكوكًا فيها، وأجابَ عن هذه الشُّكوك. ثمَّ قال القِفْطيُّ: «ورأيتُ شرحَ المقالة العاشرة لرجل يوناني قديم اسمُه «بليس»، وقد خرَجَت إلى العربيَّة وملكتُها بخطِّ ابن كاتب حليم، وهي عندي والحمدُ لله، ورأيتُ شرحَ العاشرة للقاضي أبي محمَّد ابن عبد الباقي البغدادي الفَرَضي، المعروف بقاضي البيمارستان، وهو شرحٌ جميلٌ حسَنٌ مثَّلَ فيه الأشكالَ بالعدد، وعندي هذه النُّسخةُ بخطِّ مؤلِّفها»[1].

وكان القفطيُّ ناقدًا للأخبار، وروايات المؤرِّخين في تاريخ رجال يونان، وكأنَّه واحدٌ من أبناء هذه الأُمَّة، استيعابًا وتدقيقًا.

يقولُ في تاريخ بطليموس الفلوذي، صاحب كتاب «المَجَسْطي» الذي انتهى إليه علمُ حركات النُّجوم ومعرفة أسرار الفلك: «ومن النَّاس مَن يدَّعي المعرفةَ بأخبار الأُمَم يخليه -أو قال: يُحليه بالحاء المهملة- أحدُ البطالسة، وربَّما قيل: البطالمة اليونانيِّين، الذين ملكوا الإسكندريَّةَ وغيرَها بعد الإسكندر،

---

(١) «أخبار الحكماء»: ٩٥.

وذلك غلطٌ بيِّنٌ وخطأٌ واضحٌ؛ لأنَّ «بطليموس» ذكَرَ في كتاب «المجسطي» في النَّوع الثَّامن من المقالة الثَّالثة منه الجامعةِ لجميع حركات الشَّمس وأرصادها، وسائر أحوالها، أنَّه رصَدَ في سنة تسعَ عشرةَ من سِنِي «إذرَيانوس»، إلى آخر ما قال، واستخرَجَ من كلام «بطليموس» بالفَهم الصَّحيح أنَّ «بطليموس» كتَبَ كتابَ «المجسطي» في علم الهيئة بعد عهد «أوغسطين» ملك الرُّوم، الذي تغلَّبَ على «فلوبطره» كما يقولُ؛ يعني: «كليوباتره»، بأكثر من مئة سنة، وهذا قاطعٌ في أنَّ «بطليموس» هذا لم يكُن من البطالمة.

ويُصحِّحُ وهمًا آخَرَ في سيرة «بطليموس» الذي كان يَصِفُه بأنَّه إمامٌ كاملٌ فاضلٌ، هذا الوَهمُ هو الزَّعمُ بأنَّه أخَذَ عن «أبرخس» الذي كان يَرصُدُ النُّجومَ، ويؤكِّدُ القفطيُّ أنَّ بين رَصْد «بطليموس» ورصد «أبرخس» مئةَ سنة.

ويقولُ عن «بطليموس»: إنَّه حصيلةُ علم اليونان والرُّوم، وأنَّه اجتمَعَ عنده ما كان متفرِّقًا من هذه الصِّناعة عند أهل الشِّقِّ الغربي من الأرض، وبه تجلَّى غامضُها، وما أعلمُ أحدًا بعدَه تعرَّضَ لتأليف مثل كتابه المعروف بـ «المجسطي»، ولا تعاطَى معارضتَه.

ثمَّ قال: «ولا يُعرَفُ كتابٌ أُلِّفَ في علم قديمها وحديثها، فاشتمَلَ على ذلك العلم، وأحاطَ بأجزاء ذلك الفنِّ غيرَ ثلاثة كتُبٍ، أحدُها كتابُ «المجسطي» هذا في علم الهيئة وحركات النُّجوم، والثَّاني كتاب «أرسطوطاليس» في علم المنطق، والثَّالث كتاب سيبويه»[1].

---

(١) ص ٩٧.

ويَصِفُ كتابَ «الأصول» لإقليدس وصفًا قريبًا من هذا ويقولُ: كتابٌ جليلُ القَدْر عظيمُ النَّفع، أصلٌ في هذا النَّوع لم يكُن ليونان قبلَه كتابٌ جامعٌ في هذا الشَّأن ولا جاء بعدَه إلَّا مَن دارَ حولَه، وقال قولَه، وقد عُنِيَ به جماعةُ رياضي يونان والرُّوم والإسلام، فمن شارح له ومُشكل عليه، ومُخرجٌ لفوائده.. ولقد كانت حكماءُ يونان يَكتُبون على أبواب مدارسهم: لا يَدخُلنَّ مدرستَنا مَن لم يكُن مُرتاضًا؛ يعنون بذلك لا يدخلنَّها مَن لم يقرأ كتابَ «إقليدس»[١].

هذه صورةٌ مختصرةٌ أشدَّ الاختصار لدراسة القفطي في ميادين علوم الطِّبِّ والهندسة والهيئة أو الرِّياضة.

وكان لبُعدِ غَوْرِ القِفطي في ثقافة أُمَّته، وكَثرةِ محصوله من عُلومِها، أثرٌ واضحٌ في دراسته لهذه الأعجميات، فقد ألقَى أَرْديةَ الفكر العربي الإسلامي عليها، وأجرى فيها صيغَ المعرفة الإسلاميَّة ورموزَها، وأشربَ هذه الأعجميَّاتِ من سلسال البيان العربي فاستُعرِبَت، وصِرْتَ كأنَّك تقرأُ أثَرًا عربيًّا لولا أسماءُ الأعلام التي لا حيلةَ له فيها، فـ«إقليدس» إمامٌ فاضلٌ، وكان «بقراطُ» تقيًّا عفيفًا ورعًا، و«أفلاطون» كان من أبوين شريفين، وأُمُّه فلانةُ بنتُ فلان الذي كان من أيَّامه في قومه أنَّه ذو أَنَفَة، وأنَّه كان منه كذا وكذا.

وهذا أمرٌ مهمٌّ يَرتبِطُ بالذي قلتُه أوَّلَ هذا الكلام ممَّا اعتبرتُه مَدخلًا، وتسامحتُ فأرسلتُ الكلامَ فيه، ولستُ من الذين يَصرِفون وجهَهم عن اليوم الذي يعيشون فيه كما قلتُ، والغدِ الذي يُعِدُّون له، إلى الماضي الذي غبَرَ وغبَرَ

---

(١) ص٩٣.

مَن فيه، وإنَّما أعيشُ في أعماق تراث السَّلف من أجل اليوم والغد، وليس من أجل الأمس؛ لأنَّ الأمسَ قد فاتَ وما فاتَ ماتَ، ولا يتعلَّقُ بالأمس الذي ماتَ إلَّا مَن عجَزَ أن يعيشَ اليومَ الذي يَحتدِمُ بالحياة والأحياء.

وتراثُ هذا السَّلف يقولُ: إنَّ مَن ثبَتَت أقدامُه في علوم قومه كان قادرًا على أن يُعَرِّبَ علومَ الآخرين، وتعريبُه لها ليس أن ينقُلَها إلى ألفاظ العربيَّة، وإنَّما أن يجعلَ الفكرةَ نفسَها فكرةً عربيَّةً.

وأنَّ مَن ارتعَشَت ساقُه، وضَعُفَ في علوم قومه، اختلَّ عنده كلُّ شيء، وقد استُعجِمَت علومُ العربيَّة في كتبنا ومحاضراتنا وبحوثنا ومجلَّاتنا، حتى شرحُ الشِّعر الجاهلي استُبْهِمَ واستُعجِمَ وصِرْنا نقرأُ البحثَ الذي يُحلِّلُ «قِفَا نَبْكِ»، فنَفهَمُ «قِفَا نَبْكِ» بفطرتنا، ولا نفهمُ شيئًا من الكلام الذي يُحلِّلُها؛ لأنَّه فكرٌ أعجميٌّ مرَّ بعقل ضعيف كتبَه بحروف عربيَّة وأبْقَى عُجمتَه مبهمةً، ثمَّ إنَّه أفقَدَ هذا الفِكرَ حيويَّتَه ونَبْضَه الذي كان يَنبِضُ به مَن مَنابته الأولى.

وهكذا قُلْ في غير الشِّعر من الدِّراسات اللُّغويَّة والأدبيَّة والنَّقديَّة، صار كلُّ ذلك أعجمَ شاحبًا؛ لأنَّ مَن كتبوه عجزوا عن أن يُجْرُوا فيه سلسالَ البيان العربي الذي يُداخِلُ الفكرةَ نفسَها ويُعرِبُ جوهرَها.

وقد قرأتُ كلمةً شريفةً للطَّبيب الأديب الدُّكتور يحيى الرخاوي أستاذِ علم النَّفس في القصر العيني، الذي لا يزالُ قلعةً من قلاعنا -ندعو اللهَ أن يَحفظَه بنُجبائه- قال هذا الرَّجل الشَّريف وهو يتكلَّمُ في سياق تعريب الطِّبِّ: «عَرِّبُوا العربيَّةَ أوَّلًا»؛ لأنَّكم تَدرُسون اللُّغةَ العربيَّةَ بعلوم أعجميَّة، وأنَّ هذا الحشدَ من

الأعجميَّات الذي زحَفَ حول العربيَّة، واحتلَّ قاعةَ بحثها ودَرْسها وشِعرها ونحوها ولغتها وفقهها ونقدها، هذا الحشدُ غيرُ الكريم هو الذي أضعَفَها وجعلَها تَختَلُّ في أفواه أجيالنا.

ورأسُ الدَّاء هو الضَّعفُ في علومنا، والذين يُشعِلون النَّارَ في هذه العلوم ويتراقصون حولها لم يَفعلوا ذلك إلَّا لجهلهم بها وإحساسهم بصعوبة الخَوض فيها، وتجشُّم مشقَّة المعرفة المُتقَنة لها.

وإنَّما يكونُ قَدْرُ الباحث والمؤلِّف والعالِم بمقدار فقهه لعلومه وتراثه، وقدرته على أن يَخوضَ عُبابَ هذه العلوم، وأن يُمسِكَ بأَعِنَّتها، هكذا الحالُ في الأُمَم كلِّها، ترى النَّابغين من علماء الأُمَم هم أشدُّ النَّاس التصاقًا بخصائص أُمَّتهم، وأكثرُ ولَعًا بدقائق معارفها، وخفايا نفوسها، وخواطرها المودَعة في آدابها وفنونها، وادرُسْ مَن شئتَ من رجالات الأُمَم، ومدَى استيعابهم لآثار أُمَمهم الفكريَّة وغير الفكريَّة، وتأمَّل إلى أيِّ مدًى يكونُ انتماؤهم لهذا التَّاريخ، وهذه الأُمَّة وهذه الحضارة، وكلُّ ذلك تراه يزدادُ عمقًا بمقدار زيادة النُّبوغ والتَّفوُّق، وكأنَّهم لم ينسلوا من أصلاب آبائهم، وإنَّما انسَلُّوا من أصلاب هذا التَّاريخ، وهذه العلوم، وهذا الشَّعب صانعِ هذا التُّراث، وكأنَّ هذه الأرضَ، وهذا الشَّعبَ، وهذا التَّاريخَ، هو أمٌّ لهم وأبٌ، ولم أقرَأْ لعالِم مذكور في قومه استهانةً بعلوم قومه وتاريخ قومه، إلَّا مَن ذُكروا فينا بأنَّهم كِبارٌ، وأشعرُ أنَّه يسيءُ إليَّ وأنا أقرأُ له؛ لأنَّ الإساءةَ إلى عطاء قومي هي إساءةٌ إليَّ، وكأنَّه وهو منَّا يتكلَّمُ عنَّا بلسان عدوِّنا، والأمرُ ليس كذلك عند النَّابهين في العلوم والآداب، وإنَّما كل النَّابهين من أبناء

الأُمَم، يستوي في ذلك العالِمُ والقائدُ المحاربُ والسِّياسيُّ النَّابهُ، كلُّ هؤلاء لا يكونون من ذوي الشَّأن في أممهم إلَّا بقوَّة الوعي لها ولتاريخها وقوة الانتماء لماضيها وحاضرها ومستقبلها، ولكلِّ الذي عليه حتى المَدَرُ والحجرُ...

وأعودُ إلى القاضي الأكرم، والكتابة عن الكرام تَجِدُ النَّفسُ لها وفيها غِبْطةً... لأنَّ اللهَ فطَرَ النَّاسَ على الحبِّ والصِّدق والوفاء، والبرِّ وعمل الخيرات والصَّالحات، كان القِفْطيُّ شاعرًا وكاتبًا، ومتذوِّقًا للشِّعر والأدب، وقد أَمْلَى على ياقوت أدبًا كثيرًا، وكان يتأنَّقُ في أسلوبه، ويَحرِصُ على فصاحته ورَوْنقه ومائه، ومع تبحُّره في اليونانيَّات لم يَقِف عند دراسة أرسطو لشعر اليونان، ولم يَلفِت إلى بلاغة اليونان، وكان شديدَ الحفاوة بأرسطو، وذكَرَ أكرمَ شعراء اليونان «هوميروس» صاحبَ «الإلياذة»، وهي من الأدب الإنساني الرَّفيع، ولم تكن عنايةُ القفطي بهذا القسم من تراث أرسطو كعنايته بغيره من تراث اليونان، ويُلاحظُ أنَّ القفطيَّ ولدَ بعد عبد القاهر بأكثر من مئة سنة، ولو قيل في زمانه: إنَّ عبدَ القاهر أفادَ من بلاغة أرسطو، لتكلَّم في ذلك، ولو لحَظَ هو أيَّ أثر لأرسطو في علوم العرب لتكلَّمَ في ذلك، ولو لحَظَ أنَّ التُّراثَ اليونانيَّ كان له أثرٌ في إنضاج الحركة العلميَّة، وأنَّ ترجمتَه أفادت العربَ لتكلَّمَ في ذلك، وكلُّ هذا يؤكِّدُ أنَّ القولَ في أثر التَّرجمة في الحركة العلميَّة عندنا كلامٌ من أكاذيب الاستعمار، والقفطيُّ أحدُ كِرام المؤرِّخين لهذه الأُمَّة، وما كان له أن يَسكُتَ عن شيء كهذا لو كان قيل في زمانه أو قبل زمانه، والغريبُ العجيبُ أنَّه بقيَ منَّا مَن يقولُ: إنَّ البلاغةَ العربيَّةَ يونانيَّةٌ، وإنَّ

ترجمةَ علوم اليونان كان لها أكبرُ الأثر في الطَّفرة التي كانت عليها علومُنا بعد التَّرجمة، وكلُّ هذا قيل زمن سيطرة الاستعمار على بلادنا، وصانعُه رجالٌ منَّا وُصِفوا بأنَّهم كبارٌ، وأنَّهم روَّادُ النَّهضة التي لم نَعرِفها إلى اليوم.

وكان أفلاطون قبل أن يلتقيَ بأستاذه سقراط شاعرًا، وكان مذكورًا بالشِّعر، ولمَّا سمعَ رأيَ سقراط في الشِّعر هجَرَ الشِّعرَ، وجمعَ كتبَ الشِّعر وأحرَقَها، وقد حدَثَت له حادثةٌ مُزلزِلةٌ بسبب شهرته بالشِّعر، وذلك أنَّ طاغيةً جبَّارًا غلَبَ على صقليَّة، وكان أفلاطون يذهبُ إليها لشراء الكتب؛ لأنَّها كانت مركزًا ثقافيًّا في زمن أفلاطون، وكان بعضُ الشُّعراء منقطعين لمديح هذا الجبَّار الطَّاغية ويُنافقونه، فلمَّا عَلِمَ هذا الطَّاغيةُ بوجود أفلاطون في مدينته دعاه، وطمِعَ في أن يَمدحَه، وجرى حوارٌ بينه وبين أفلاطون، وكان أفلاطون قويًّا وصريحًا، وشديدَ المحافظة على مبادئه وأخلاقه، وكاشَفَ الطَّاغيةَ ورفضَ مدحَه؛ فغضبَ الجبَّارُ الطَّاغيةُ الجاهلُ، وأمرَ أن يُباعَ أفلاطون وأن يصبح عبدًا، فاشترى أفلاطونَ رجلٌ يَعرفُ مكانتَه ليُبعدَه عن بطش هذا الطَّاغية، ثمَّ ذهبَ رجلٌ آخَرُ محبٌّ للحكمة لمَّا عَلِمَ بهذا الأمر الشَّنيع ليشتري أفلاطونَ ويُعتقَه، فلمَّا كلَّمَ الرَّجلَ الذي اشتراه قال له الرَّجلُ: أعتَقَتْه حِكمتُه.

وهكذا لا تزالُ ترى في النَّاس جهلةً طواغيتَ، يَملِكون أمرَ النَّاس ويستعبدون الحكمةَ، ثمَّ ترى في النَّاس كرامًا يَفُكُّون الأغلالَ عن أعناق الحكمة، وكان أفلاطون قبلَ ميلاد المسيح -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بخمسة قرون، والطُّغيانُ لا يزالُ هو الطُّغيان، وإن كان قد انقرَضَ الكرامُ الذين يَفُكُّون الأغلالَ التي يَفرِضُها

الجهلةُ الطَّواغيتُ على عنق وعقل وقلب الحكمة.

وكان سقراطُ شديدَ الحفاوة بأفلاطون، وكان قد رأى في منامه أنَّ طائرًا أبيضَ قد سقَطَ على حجره، فلمَّا حضَرَ أفلاطونُ مجلسَه فسَّرَه بهذا الطَّائر الأبيض، وقد ذكَرَ القفطيُّ قصَّة رحلة كتُب اليونان إلى العالَم الإسلامي، وأنَّ المأمونَ كان قد رأى أرسطو في منامه، ووصَفَه كما وصفته الكتبُ التي لم يقرأها المأمونُ، وأنَّ المأمونَ سألَه ما الحَسَنُ؟ فقال أرسطو: ما حسَّنَه العقلُ. فقال المأمونُ: ثمَّ ماذا؟ فقال أرسطو: وما حسَّنَه الشَّرعُ. فقال المأمونُ: ثمَّ ماذا؟ فقال أرسطو: ثمَّ لا ثمَّ. وكانت هذه الرُّؤيةُ هي سببَ طلب المأمون من ملك الرُّوم أن يُرسِلَ إليه كتبَ اليونان، ولمَّا وصَلَت رسالةُ المأمون إلى ملك الرُّوم بحَثَ ملكُ الرُّوم عن كتب اليونان فلم يَجِدها، فضاقَ الملكُ بذلك وقال: يَطلبُ منِّي ملكُ المسلمين كتبَ آبائي فلم أَجِدها! فجاءه راهبٌ مغمورٌ، وكان الملكُ سأَلَ كلَّ الرُّهبان فلم يَعرِفوا، والأصلُ في المسألة أنَّه لمَّا دخلَ الرُّومُ في المسيحيَّة في القرن الأوَّل المسيحي، خافوا على عقيدتهم من كتب اليونان؛ لأنَّها تمثِّل فلسفةً وثنيَّةً، فجمَعوا كلَّ كتب اليونان ووضعوها في هيكل كانوا يتعبَّدون فيه، واتَّفَقوا على أنَّ كلَّ ملك يَحكمُ عليه أن يضَعَ قُفلًا على بابِ الهيكل؛ إمعانًا في حبس هذا التُّراث الوثني، وحرصًا على سلامة المسيحيَّة منه، ثمَّ نسيَ النَّاسُ هذا، وجرى في النَّاس اعتقادٌ أنَّ الذي في الهيكل ذهبٌ، وأنَّ كلَّ ملك مُطالَبٌ بوضع قُفل على بابه؛ ليُثبِتَ نجاحَه في إدارة أحوال البلاد الاقتصاديَّة، وأنَّه لم يَمُدَّ يدَه إلى هذا الذَّهب، والذي كان يَذكُرُ هذا كلَّه هو الرَّاهبُ المغمورُ الذي ذهَبَ إلى الملك، وقال له: كُتبُ اليونان في

هذا الهيكل. ولمَّا فتَحوا الهيكلَ وجَدوا الكُتبَ فيه حملَ مئة بعير كما قال القفطيُّ، وقال الملك للرُّهبان: هل عليَّ من حرج لو أعطيتُ هذه الكُتبَ لملك المسلمين؟

فقال له الرَّاهبُ: أيُّها الملكُ هذه الكتبُ ما دخَلَت على دِين قوم إلَّا زلزلت عقائدَهم، فأَعطِها لملك المسلمين وأنت مأجورٌ غيرُ مأزور. قالوا: وكانت الكتبُ في الهيكل غيرَ مُرتَّبة، والذي حملوه إلى المأمون منها كان غيرَ مرتَّب، وكان أجزاء غيرَ مكتملة.

وكان القفطيُّ واحدًا ممَّن جَدُّوا في البحث لاكتمال ما وقَعَ عليه من هذه الكتب، وكانت كلُّها مخطوطةً؛ يعني: أنَّ حملَ المئة بعير التي كانت في الهيكل كانت مخطوطاتٍ، وهذا معلومٌ، وإنَّما نذكِّرُ به لنزدادَ وعيًا بهذا التُّراث اليوناني القديم وبحجمه، وكيف استطاعت هذه الأُمَّة الوثنيَّةُ التي لم يَنزِل فيها كتابٌ أن تُنْتِجَ بعقولها التي لم يَهدِها وَحيٌ كلَّ هذا العطاء، وكان القفطيُّ مقدِّرًا لتفوُّق ونفوذ أرسطو، ولكنَّه لمَّا خاضَ بحرَ الإلهيَّات ضَلَّ؛ لأنَّ الإلهيَّات لا يُهتدَى في بحارها إلَّا بوحي، والعجيبُ أنَّ القاضيَ الأكرمَ ابنَ القاضي الأشرف كان إذا حدَّثَ عن علم يونان كأنَّه واحدٌ منهم، ويروي حكاياتٍ طريفةً لا يَرويها في أدب قوم إلَّا الذي أعطى هذا الأدبَ حقَّه من المدارسة والمراجعة، وهذا بخلاف مَن يَطلعُ على أصوله العامَّة، من هذه الرِّوايات الطَّريفة أنَّ شاعرًا يونانيًّا مغمورًا كان في زمن هوميروس، وقد عاب هوميروس ببطء إنتاجه وقلَّة شعره، فقال له هوميروس: إنَّ امرأةً في أنطاكية عابت اللَّبْوةَ بطول حملها وقلَّة ولدها، فقالت لها اللَّبوةُ: نعم أنا بطيئةُ الحمل وقليلةُ الولد، ولكنَّني ألِدُ أسدًا.

وقد ذكَرَ القفطيُّ الخمسةَ الذين كانوا يوصَفون بأنَّهم أَساطينُ الحكمة، وترجَمَ لهم، وأنَّ منهم مَن أخذَ الحكمةَ عن نبي الله إدريس، ومنهم مَن عاشَ في زمن داود عليه السلام، ومنهم مَن أخذَ عن لقمان بن عاد الذي آتاه اللهُ الحكمةَ.

والذي يدُلُّك على ما أردتُ أن أدُلَّك عليه -وهو سعةُ علم القاضي الأكرم باليونانيَّات- هو أن تقرأَ كتابَه «أخبار الحكماء»؛ لأنَّك سترى القاضي في كتابه هذا من أوسع علماء اليونان بعلوم يونان، والمقصودُ الأهمُّ هو ما بعد ذلك، وهو أنَّ كتاباتِ القاضي في علومنا ولغتنا، وأدبنا ورجالنا وتاريخنا، ليس فيه حرفٌ واحدٌ من هذه اليونانيَّات، وإذا قرأتَ تراثَه العربيَّ الإسلاميَّ، ولم تكن اطَّلَعت على «أخبار الحكماء»، لا يَقَع في نفسك أبدًا أنَّ له علمًا بغير علومنا، وهذا هو شأنُ الكبار الذين يَحرصون على بقاء العلوم غيرَ مُهَجَّنَة.

هذا واللهُ أعلمُ

* * *

تصحيحُ مقولةٍ في تاريخ الإسلام

كثُرَ كلامُ المؤرِّخين والكُتَّاب في عصرنا حولَ تحليل الوَثبة الفكريَّة التي أبدَعَها العقلُ الإسلاميُّ في القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

وقد كان الشَّائع في كلامهم جميعًا أنَّ العربَ المسلمين لمَّا أُتيحَ لهم أن يتَّصِلوا بحضارات الأُمَم، وثقافاتها وآدابها وعلومها، استنارَت عقولُهم، وعرَفوا طريقَهم، ولولا هذه الأضواءُ الأعجميَّةُ لظلُّوا في تِيه جاهليَّتهم؛ ولهذا كانت علومُهم بذورًا غريبةً تساقَطَت في تربتهم من هذه الآفاق الأعجميَّة، فالنَّحوُ نبتةٌ «سُرْيانيَّة، والبلاغةُ هامشٌ على مقولات أرسطو في الخطابة والشِّعر»، وهكذا بقيَّةُ العلوم.

وبهذا تؤكِّدُ هذه المقولةُ أنَّ العقلَ العربيَّ لم يصنَع نهضتَه إلَّا وهو محمولٌ على عقول أعجميَّة، وهذا العقلُ العربيُّ في أحسن حالاته عقلٌ شارحٌ فحسب، وازدهارُ الحياة الفكريَّة في أُمَّة المسلمين يعني: ازدهارَ الشُّروح والأعلاق، وليس في ذلك شيءٌ من الإبداع والخلق وصنع المعرفة.

وهذا الكلامُ يَشيعُ في الكتب أحيانًا بهذه الصُّورة الواضحة، وأحيانًا بصورة أقلَّ وضوحًا، وفيها قَدْرٌ من المجاملة للعقل الإسلامي، ولكنَّ الحقيقةَ تنتهي إلى أنَّ هذه النَّهضةَ الإسلاميَّةَ لم تكن خالصةً للمسلمين في أكثر جوانبها، وإنَّما اتَّكأتْ على العقليَّة اليونانيَّة بصورة واضحة، وعلى العقليَّة الفارسيَّة بصورة أقلَّ من ذلك، وهكذا.

وهذا الكلامُ ينطوي على معنًى خبيث ومقصودٍ قد أغفلناه عن غفلة شائنة-

وهو التَّقليلُ من أثر الإسلام في هذه الوَثبة الرَّائعة، مع أنَّها من محض عطائه، وسوف أدَعُ هذا، وأناقشُ المسألةَ من وجهة نظَر الواقع العلمي البعيد عن التَّأثُّر بمجرَّد الانتماء لهذه الأُمَّة.

أعني: أكتبُ ما يَكتُبُه المحايدُ المُطَّلعُ، ولو كان غيرَ مسلم، فأقولُ: إنَّ الذي يُتابعُ حركةَ العلوم وتاريخَها، ويُحلِّلُ عناصرَها بدِقَّة وفَهم، لا يرى صوابًا في هذه الشَّائعة؛ وإنَّما يرى أجيالًا من علماء الإسلام تتابَعوا في جِدٍّ ودَأْب، وتوارَثُوا أصولًا من المعرفة، جعَلُوا همَّهم كلَّه في تحريك هذه الأصول، وتهيئة أسباب النُّموِّ والازدهار لها، وغيرِ ذلك ممَّا يُشغلُ به العلماءُ، وما من كتاب في فرع من فروع المعرفة إلَّا وله مصادرُه وأصولُه، في التُّراث الذي كان بين يَدَي مؤلِّفه.

وكلُّ مرحلة من مراحل التَّطوُّر، في أيِّ فرع من فروع المعرفة، هي في الحقيقة فكرُ الزَّمن القديم، تَخلَّلَه عقلُ الزَّمن الحاضر، فصاغَه صياغةً جديدةً، وأجرَى فيه روحًا جديدةً، وأحدَثَ فيه توقيعًا جديدًا، وبقَدْر جِدَّة وأَصالة هذه الصِّياغة، وقوَّة هذه الرُّوح، وجزالة هذه التَّوقيعات - تكونُ قيمةُ المرحلة، ومقدارُ الطَّفْرة التي طفَرَتها العلومُ.

تأمَّل ما شئتَ من المصادر التي كانت معالمَ شاهقةً في تاريخ العلوم، مثلَ كِتاب «الأم» للشَّافعي، و«الخصائص» لأبي الفتح، فلن تَجِدَ في كتاب «الأم» إلَّا عقلَ الشَّافعي، كالفَرْقَد[١] المتوهِّج يَشُقُّ الغَيْهَبَ[٢]؛ ليكتشفَ ما تحت الكلمة

---

(١) [أي: كالنَّجم].

(٢) [أي: الظُّلمةَ].

القرآنيَّة من علم غزير، ولن تَجِدَ في كتاب «الخصائص» إلَّا علمَ الفارسي، وعلمَ سيبويه، ومَن في طبقتهم، يَتخلَّلُه عقلُ أبي الفتح تخلُّلًا أخصَبَ هذا الفِكرَ إخصابًا جديدًا، واستخرَجَ منه استخراجاتٍ جديدةً، وهذه المداخلاتُ التي يَبُثُّها هذا العقلُ هي القياسُ الدَّقيقُ لأقدار المصادر، فقد يَكتفي صاحبُ الكِتاب بجمع المادَّة العلميَّة القديمة، وينظِّمُها ويُصنِّفُها، وحسْبُه أن يرجِّحَ مرجوحًا، أو يخالفَ مشهورًا، ويَقِفَ عند هذا الحدِّ الذي يَضَعُ فيه الرَّأيَ إزاءَ الرَّأي، من غير أن يُثيرَ حوارًا، فضلًا عن أن يَجعلَ هذا الحوارَ يَشتدُّ ويُدمدمُ أحيانًا، حتى ليُحدِثَ جَلَبةً يَنهدِمُ بها رأيٌ ضعيفٌ في مواجهة حوار عقل فَذٍّ.

ومن العلماء مَن ترى له مداخلاتٍ لطيفةً وخفيَّةً وجزلةً وجادَّةً، وغير ذلك وأكثر من ذلك، وهم العِلْيَةُ من العلماء الذين ترى مُداخلاتِهم هذه كأنَّها مَسُّ «الكهرباء»، ترى بها الكلامَ الموروثَ وقد صارَ كأنَّه يَنتفِضُ في كلماتهم، حتى تخرُجَ منه ودائعُه، فترى فيه خواطرَ وعوارفَ جديدةً ومُبهرةً.

وترى هذه الجذوعَ القديمةَ تهتزُّ وتربو بعدما بَقيَت زمنًا وهي ساكنةٌ، وتمرُّ بها العقولُ المتوسِّطةُ مَرَّ الكرام، ثمَّ طافَ بها طائفٌ من عقل حُرٍّ فَحْلٍ، فانعطفَ نحوَه، وكشَفَتْ له المستورَ في أكنانها.

أقولُ هذا وفي ذاكرتي مداخلات أمثال سيبويه التي صيَّرت علمَ الخليل ويونس علمًا ثالثًا، هو علم سيبويه، وألقَت عليه رداءَه، وهكذا قُلْ في عبد القاهر الذي كان يَقِفُ عند الجملة الواحدة من كلام سيبويه، ويَضرِبُ فيها بعقله حتى يُصيِّرَها بابًا لا يُنالُ غَورُه، وهذا الذي أقولُه لا يَشوبُه شَوبٌ من

المبالغة، والمشكلةُ أنَّه غائبٌ.. وغيبتُه هيَّأَت عقولَنا لقبول القول بأنَّ ازدهارَ العلوم العربيَّة والإسلاميَّة إنَّما كان من أثر اطِّلاع العرب المسلمين على علوم الآخرين، وأنَّ التَّرجمةَ نظَّمَت عقولَهم، وعرَّفَتهم المنهجَ.. إلى آخر ما يجري ويَشيعُ، حتى غَفَلَ بعضُ الشُّيوخ وقالوه.

وأقولُ بصيغة أخرى: إنَّ علمَ الفقه هو أصلُ العلوم العربيَّة والإسلاميَّة، وهو بمثابة الجَدِّ الأكبر لهذه الفصائل؛ لأنَّه الغايةُ من وراء علوم القرآن والتَّفسير والإعراب، وعلوم اللِّسان كلِّها، وقد سَرَت روحُه في علوم العربيَّة؛ فالنُّحاةُ مُقتدون بالفقهاء في طرائقهم التي يُصَرِّفون بها القولَ في العلم، ومُصرِّحون في كتبهم بهذا، والنُّقَّادُ كثيرٌ منهم فقهاءُ ومُلقَّبٌ بالقاضي، والبلاغيُّون شيوخُهم من الفقهاء، ثمَّ إنَّ أركانَ المعرفة الفقهيَّة هم: مالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ وأبو حنيفةَ وأصحابُهم، وقد كانت ولا تزالُ دراساتُهم ومناهجُهم واجتهادُهم موضعَ إلهام لكلِّ ذي هِمَّة في باب من أبواب المعرفة، وأسألُ نفسي أين توقيعاتُ الفكر الأعجمي من يوناني وفارسي وهندي في هذا الصَّرح الهائل؟!! والجوابُ: لا شيءَ، وهكذا في بقيَّة العلوم، حاشا الفلسفة والعلوم الحكميَّة، فقد اقتبَسَها علماؤنا اقتباسًا ظاهرًا، لم يَكتمْه منهم أحدٌ، وبقيَت الفلسفةُ الإغريقيَّةُ بعد إسلامها ذاتَ طابَع إغريقي متميِّز، كَفَّها هذا الطَّابَعُ وعزَلَها فلم تَندمِج في صَرْح العلوم العربيَّة والإسلاميَّة ذاتِ النَّسَب الخالص، وبقيَت الجَمْهرةُ من علمائنا تدفَعُها وتَصرِفُ عنها.

ولا يجوزُ أن نقولَ: إنَّ علماءنا الذين أسَّسوا علومَنا لم يقرءوا تراثَ الأُمَم الأخرى الذي كان يُتاحُ لهم أن يقرءوه؛ لأنَّ هذا القولَ يخالفُ ما فطَرَ اللهُ عليه

العقولَ الحيَّةَ ذاتَ التَّوق الدَّائم للمعرفة، والعقلُ الحيُّ يَنعطِفُ، لا محالةَ، نحوَ: هومير وهيجو وفاليري وكلوردج، كما يَنعطِفُ نحوَ زهير وأبي الطَّيِّب والتَّوحيدي وشوقي ومحمَّد عبده، والذَّائقةُ التي تُدرِكُ روائعَ الآداب والأفكار لا يُمكِنُ أن تشعرَ بجلال موهبة أبي العلاء، ثمَّ تستصغر عظمةَ «دانتي»، وهذا أمرٌ لا كلامَ فيه.

وعلماؤنا الذين دفَعوا الفلسفةَ، وذادُوها، وصرَفوا عنها، قرءوها وأحكَموا فَهمَ مقالتها، وإلَّا كان دفعُهم لها خَبْطًا في هواء.

وهذا الاطِّلاعُ شيءٌ يحدَّدُ بحدوده، فلا يجوزُ أبدًا أن يقالَ إنَّ هذه الوَثبةَ العلميَّةَ إنَّما كانت من أثَر هذا الاطِّلاع؛ لأنَّنا نَعلمُ أنَّ الفكرةَ الرَّائعةَ، والكلمةَ النَّبيلةَ، أمامَ العقل الإنساني الحرِّ كالماء والهواء، لا يسألُ الإنسانُ الذي يتنفَّسُ الهواءَ من أين هَبَّت نسائمُه، ولا يسألُ الإنسانُ الذي يُروى بالماء من أين انسابت منابعُه، ومع هذا تبقى في يَدِ كلِّ أُمَّة مادَّتُها التي تصوغُ منها علومَها على الوجه الذي تُمليه عليها هذه المادَّةُ، والتي تُحرِّكُها دوافعُ وعواملُ أبعدُ في العقول غورًا من هذا الاطِّلاع العامِّ، وإنَّما ترجعُ إلى المعرفة الأوسع والأعمق والأدخل في تكوين العقل، وليس لهذه المعرفة العامَّة شيءٌ في هذا السَّبيل.

وقولُنا إنَّ الكلمةَ الرَّائعةَ يَحتضِنُها العقلُ الإنسانيُّ من غير أن يسألَها عن جنسيتها أو دينها - أمرٌ ثابتٌ، ولكنَّه يُمثِّلُ المعرفةَ العامَّةَ التي كان يَجِبُ أن يُحصِّلَها الطَّبيبُ والمهندسُ، والأديبُ والعالِمُ اللُّغويُّ، وأن يكونوا جميعًا فيها سواءً، وأنت ترى الحكمةَ الفرنسيَّةَ أو الإنجليزيَّةَ قد وصَلَت إلى أفواه

بعض العوامِّ في ريفنا الغارق في الأوهام والأحلام والأسرار، وعجيبٌ جدًّا أن تَجِدَ باحثًا يقولُ: إنَّ فلانًا من علمائنا قد انتَفَعَ بالفكر اليوناني في كتابه كذا، ويَستشهدُ لذلك بأنَّ هذا العالمَ ذكَرَ «أرسطو» أو «سقراط» من غير أن يَفطِنَ إلى أنَّ المعرفةَ العامَّةَ التي تُذكَرُ فيها أسماءُ العلماء شيءٌ، واقتباسَ العلم شيءٌ آخَرُ، أو وصول الأثَر إلى بؤرة التَّفكير وموطن الإدراك الحسَّاس الذي يصوغُ وجهةَ النَّظَر هذا شيءٌ آخَرُ، وأعجبُ من هذا أنَّك تَجِدُ باحثًا يقولُ: إنَّ عبدَ القاهر ذكَرَ هذه الصِّيغةَ «صناعة الخطابة والشِّعر»، وفيها كلمتا الخطابة والشِّعر مقترنتين، وهذا دليلٌ على أنَّه أخَذَ عن أرسطو؛ لأنَّ أرسطو له كتابتُه في الخطابة والشِّعر، وأظنُّك ترى معي أنَّ هذا أبعدُ من الصَّواب مسيرةَ أميال كما يقولون؛ لأنِّي قد أقطعُ بأنَّ عبدَ القاهر لم يأخُذْ شيئًا، وإن ذكَرَ اسمَ أرسطو مرَّةً ومرَّةً، وقد أقطعُ بأنَّه أخذَ جوهرَ علمه، وإن لم يذكُرِ الخطابةَ ولا الشِّعرَ، ووسيلةُ ذلك معروفةٌ لدَى أهل العلم، ولسنا بصدد الكلام فيها، وإنَّما نريدُ أن نؤكِّدَ الفرقَ بين الاطِّلاع الذي تُقتبَسُ فيه الكلمةُ والحِكمةُ والمثَلُ، وتُذكَرُ فيه أسماءُ العلماء، وبين الدِّراسة المنتظمة التي يتخرَّجُ فيها طالبُ العلم، ويُجازُ من شيخه، والتي تُشكِّلُ وجهةَ نَظَره، وطريقةَ بحثه.. إلى آخر ما هو أساسُ الازدهار الفكري.

وكان هذا مفهومًا وواضحًا لدَى علمائنا، وكانوا يرون أنَّ الاطِّلاعَ على علوم الآخرين هو بمثابة الهامش المتَّسع والمهمِّ، أمَّا القلبُ والأصلُ والعمودُ الذي عليه المعوَّلُ كما يقولون، فهو كَدْحُ العلماء في الإرث الذي انتهى إليهم من الجيل السَّابق، ثمَّ خَلْقُ صيغة جديدة لكلِّ جيل تتميَّزُ هذه الصِّيغةُ الجديدةُ بمقدار تميُّز

هذا الجيل، وهذه الصَّيغةُ الجديدةُ من أيِّ وجه أَدَرْتَها فلن تَجِدَ فيها إلَّا عنصرين:

العنصر الأوَّل: التُّراثُ العربيُّ الخالصُ.

والعنصرُ الثَّاني: هو عقلُ الباحث وخبرتُه وفقهُه، وكلُّ ما له صلةٌ بكِيانه، من حيث هو عالِمٌ ومفكِّرٌ ومجتهدٌ، ثمَّ لا ثالثَ من عناصرَ فارسيَّة، ولا إغريقيَّة، ولا غير ذلك، إلَّا في النَّزر الذي لا يَلتفِتُ إليه الذين يُحلِّلون تاريخَ العلوم والحضارات.

قلتُ: إنَّ علماءنا كانوا يُفرِّقون بين ما يُحصِّلونه من قراءة علوم الآخرين، وبين علومهم التي هي شواغلُ الدَّرس والبحث والتَّأليف، وهذه صورةٌ تدُلُّنا بطريقة عمليَّة على الفرق بين وجه الانتفاع، أو توظيف المادَّة العلميَّة التُّراثيَّة التي هي جسمُ المعرفة العربيَّة والإسلاميَّة، والمادَّةِ العلميَّة المقتبسَة من علوم الآخرين.

كان محمودُ بنُ عمر الزَّمخشري شيخًا من شيوخ النُّحاة، استخرَجَ نحوَه كلَّه من تراث الخليل وسيبويه، ومَن تَبِعَهم بإحسان، مُضيفًا إلى هذا اجتهاداتِه، وهي كثيرةٌ وخصبةٌ وجيِّدةٌ، وكذلك تراثُه البلاغيُّ استمدَّه من عبد القاهر، مضيفًا إليه فكرَه الذي أعانَه على تقديم صيغ جديدة، ومقولات حيَّة في هذا العلم، جعلَه بها العلماءُ إمامًا، وهكذا في علم التَّفسير والغريب والعقائد؛ لا ترى في ذلك شَوبًا يَلفِتُك من كلام العجم، وإنَّما هي علومٌ عربيَّةٌ صافيةُ النَّسَب، لم تَهجِنها عُجمةٌ، حتى ليُخيَّل إلينا أنَّ الرَّجلَ لم يَطَّلِع على غير تراث العربيَّة.

ويُلاحظُ أنَّ الزَّمخشريَّ كان يَكتُبُ بعضَ كتبه باللُّغتين العربيَّة والفارسيَّة، وذلك مثل كتابه «مقدِّمة الأدب» الذي كان يكتُبُ فيه سطرًا بالعربيَّة ثمَّ يكتُبُ

السَّطرَ نفسَه بالفارسيَّة، وهكذا حتى تمَّ الكِتابُ، و«مقدِّمة الأدب» هذا ليس فيه خاطرةٌ واحدةٌ يُمكِنُ لباحث مهما كان متسامحًا أن يقولَ: إنَّها يونانيَّةٌ أو فارسيَّةٌ، وإنَّما هو عربيٌّ خالصٌ.

ثمَّ ننظُرُ من جهة أخرى ونقرأُ له كتابَ «ربيع الأبرار»، فنَجِدُ الكتابَ نقولًا من آداب الفرس، واليونان، والهنود، وهو مختاراتٌ من أقوال الحكماء، والأدباء الملوك، وأصحاب الدَّولة المثقَّفينَ، وهكذا.

والنُّصوصُ الأعجميَّةُ في هذا الكِتاب غلَبَت النُّصوصَ العربيَّةَ، ويقولُ في مقدِّمة كتابه هذا: إنَّه كتَبَ الكِتابَ لطلَّابه الذي يقرءون عليه كتابَ «الكشَّاف»؛ وذلك ليقرءوه في أوقات فراغهم ترفيهًا وترويضًا؛ لأنَّ خِفَّتَه وسهولتَه ومادَّتَه تُذهبُ سآمةَ الدَّرس العلمي الجادِّ.

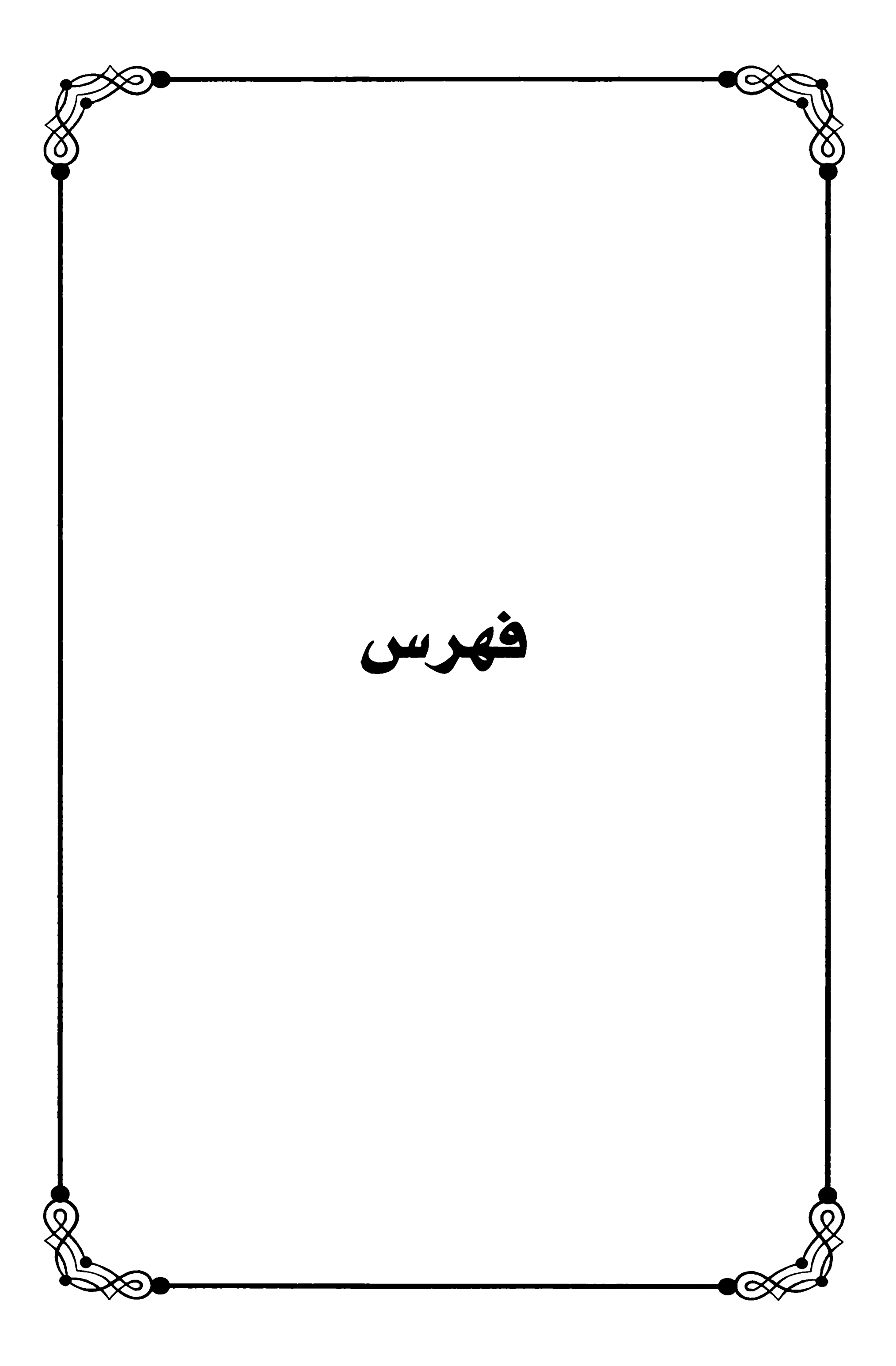
هناك إذًا ضربانِ من القراءة: قراءةُ بحث وتحليل وتحرير، وفيها يكدُّ الباحثُ عقلَه، وهي علومُ أُمَّته التي يَدرُسُها درسًا منظَّمًا كما يحدُثُ في الأُمَم كلِّها، وقراءةٌ يُذهِبُ بها الدَّارسُ عن نفسه السَّأمَ والملَلَ، وهي دائرةُ الاطِّلاع المتَّسع، ويدخُلُ فيها علومُ الآخرين، وهكذا كان يرى شيوخُنا موضعَ هذه المعارف من سياق الحركة الفكريَّة، وهم أنفسُهم الذين صنَّفوا هذه العلومَ، وأسَّسوا هذا الازدهارَ الذي زَيَّفناه بقولنا: إنَّه أثَرٌ للتَّرجمة ونقلِ علوم الأوائل. وهذا القولُ الذي زَيَّفنا به عصرَ الازدهار في تاريخنا، ورجعناه إلى العجم، لم يَقُل به أحدٌ من علمائنا الذين وَرِثوا هذا الازدهارَ، وبهَرَهم إبداعُه وتفوُّقُه، وكان موقفُ الإعجاب هذا جديرًا بأن يَدفعَهم إلى ذِكر هذه العلَّة.. عِلَّة التَّرجمة ونقل

علوم الآخرين، لو كان فيها شَوبٌ من الصَّواب، ثمَّ إنَّ هذا الجيلَ الوارثَ قد جاء في عَقِب الجيل الذي أسَّسَ؛ يعني يُشبِهُ أن يكونَ من شهود هذه الطَّفْرة، ولا يُعقلُ أن يتَّفِقوا على الصَّمت عن هذه العلَّة.

وإنَّما الذي يُعقلُ أنَّهم رأَوا وشَهِدوا صنعَ الفكر وزرْعَه واستنباتَه، وكان ذلك مصدرَ إعجابهم الذي سجَّلوه في كتبهم، وقد كانوا لا يَعُدُّون التَّراجمةَ من العلماء، ولا يَلتفتون إليهم، فكيف نتصوَّرُ أن يكونَ هؤلاء التَّراجمةُ هم مَعبرَ هذه العلوم إلى علمائهم وأسلافهم؟!! وهم أصحابُ اليَد العليا على هذا الازدهار العلمي؟!!

شاعَت هذه المقولةُ في العصر الحديث فقط، ولها غايةٌ وهدفٌ، هو تهيئةُ العقل الإسلامي المعاصر لأنَّ يكونَ مجرَّدَ ناقل يملأُ بهذا النَّقل ساحةَ الفكر والأدب في عالمه القصي المترامي، ولهذا عِلَلُه ومراميه التي لا يتَّسِعُ المقامُ لذكرها، وحسْبُنا ما أَرَدنا بيانَه.

* * *



فهرس

الفِهرِسُ التَّفصِيليُّ



Mashykhat Al-Azhar
Al-Azhar's Senior Scholars Council
Islamic Culture Books Series
No.: (20)



Our Scholars and the Heritage of Nations

By

Muhammad Muhammad Abu Mousa
Member of Al-Azhar Senior Scholars Council

